جامعة حلوان
كليـــة الآداب
قســـم الاجتمـــاع
شعبة الأنثروبولوجيا والفولكلور

إسهامات نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية

رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير فى الآداب

إعداد الطالب

عبد المنعم المغازى عبد المنعم

المعيد بقسم الاجتماع

إشراف

أ.د. نجوى عبد الحميد سعد الله
أستاذ الأنثروبولوجيا ووكيل كلية
الآداب للدراسات العليا والبحوث - جامعة حلوان

د. محمود حمدى محمد عبد الغنى
مدرس الأنثروبولوجيا
كلية الآداب - جامعة حلوان

٢٠٠٦

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ *

ربّ "اجعلنى "ممن يقول الحق ويعمل به، ويؤثره ويحتمل ما فيه مما قد يصدُّه عنه، ولا يكون حظه منه الوصف له والمعرفة به، دون الحث عليه والانقطاع له، وكشف القناع فيه، وإيصاله إلى أهله، والصبر على المحافظة فى ألا يصل إلى غيرهم، والتثبت فى تحقيقه لديهم؛ فإن الله تعالى لم يعلم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين، بل علمهم ليعملوا، وبين لهم ليتقوا التورط فى وسط الخوف".

الجاحظ

* سورة النمل: الآية ١٩ وسورة الأحقاف: الآية ١٥

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

شكر وتقدير

بعد حمد الله وشكره على ما أمدنى به من صبر ومثابرة لإنجاز بحثى، لا يسعنى إلا أن أتقدم بكل مشاعر الإجلال والحب والتقدير، وبكل عبارات الشكر والإمتنان إلى أستاذى الفاضل الدكتور **محمود حمدى عبد الغنى** الذى تعلمت على يديه العلم وأدين له بالتوجيه والإرشاد الدائم فى كل مراحل البحث وأدين له ببعث الثقة التى كانت ضرورية لإتمام العمل، وأؤكد أن اختيارى لموضوع هذا البحث جاء من خلال العناية الصادقة والتوجيهات السديدة التى شملنى بها، فهو يشجعنى دائماً ويوجهنى نحو الإخلاص فى العمل وفهم العلم منذ أن كنت أتتلمذ على يديه فى مرحلة الليسانس والسنة التمهيدية للماجستير، ولا شك أن أطيب ما فى هذا البحث يرجع إلى مساعدته إذ لم يبخل علىَّ بجهده ووقته وعلمه، وما سوى ذلك فعلىَّ وحدى تقع تبعته. له منى كل الشكر والتقدير وله من الله خير الجزاء.

ولا يسعنى فى هذا المقام أيضاً إلا أن أتقدم بخالص شكرى وامتنانى لأستاذتى الفاضلة الدكنورة **نجوى عبد الحميد سعد الله** والتى لولا مساندتها ومؤازرتها لى ما تمكنت من إنجاز هذا البحث.

كما يسعدنى أن أتقدم بالشكر والتقدير لأساتذتى الأفاضل الأستاذ الدكتور **محمد على سلامة** والأستاذ الدكتور **مصطفى عوض إبراهيم** لتفضلهما بقبول مناقشة هذا العمل فلسيادتهما عظيم شكرى وامتنانى.

ويسعدنى أيضاً أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى أستاذى الفاضل الأستاذ الدكتور **كمال محمد بشر** نائب رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة على نصائحه الثاقبة وإرشاداته الدقيقة التى كانت لها أكبر الأثر فى خروج هذا العمل إلى النور، فله منى عظيم شكرى وبالغ تقديرى.

كما أتقدم بكل العرفان إلى جميع أفراد أسرتى الذين كانوا أكثر حرصا وقلقا على إتمام هذا البحث .. وما قدموه لى من تضحيات مادية ومعنوية، فلهم منى كل الحب والتقدير والعرفان بالجميل.

والله ولى التوفيق ،،، **الباحث**

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

محتويات الدراسة

الصفحـــــة

المقدمة.....[١ - ١٠]

الفصل الأول: نظرية السياق ومنهج

البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية .....[١١ - ٤٨]

تمهيد ١٣

أولاً: تجربة البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا التطورية ١٦

ثانياً: الدراسة المكثفة قبيل الحرب العالمية الأولى ٢٣

ثالثاً: برونيسلاف مالينوفسكى والبحث الميدانى ٢٨

رابعاً: نظرية السياق: عرض وتحليل ٣٦

الفصل الثانى: الوظيفية السيكوبيولوجية

عند مالينوفسكى وعلاقتها بنظرية السياق .....[٤٩ - ٨٠]

تمهيد ٥١

أولاً: إميل دور كايم والتحليل الوظيفى السوسيولوجى..... ٥٥

أ. استقلال الحقائق الاجتماعية..... ٥٧

ب. الصفة الخارجية للحقائق الاجتماعية ٥٩

ج. طبيعة المنهج السوسيولوجى..... ٦٠

ثانياً: الوظيفية السوسيولوجية عند راد كليف براون..... ٦٥

ثالثاً: الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى ٧١

الفصل الثالث: نظرية الثقافة عند مالينوفسكى.....[٨١ - ٩٩]

تمهيد ٨٣

أولاً: الثقافة واحتياجات الإنسان البيولوجية ٨٤

ثانياً: الرواسب الثقافية بين تايلور ومالينوفسكى..... ٩٠

ثالثاً: رفض منهج التأويل التاريخى..... ٩٣

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

الصفحـــــة

رابعاً: المنظور الوظيفى التزامنى للثقافة..... ٩٥
خامساً: الخصائص الأساسية للثقافة ودعائمها..... ٩٨
الفصل الرابع: تطبيقات نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية
(الدراسات البريطانية والعربية) ..... [١٠١ - ١٣٢]
تمهيد ١٠٣
أولاً: سياق الحال وطبيعة البحث الميدانى ١٠٥
ثانياً: تأثير مالينوفسكى فى الأنثروبولوجيا البريطانية ١٠٩
ثالثاً: دراسات الأنثروبولوجيا العربية..... ١١٣
رابعاً: تقييم تطبيقات نظرية السياق..... ١٣١
خاتمة البحث ..... [١٣٣ - ١٣٩]
قائمة المصادر والمراجع ..... [١٤١ - ١٥٢]
أولاً: المصادر والمراجع العربية..... ١٤٣
ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية ١٤٧
ثالثاً: مصادر الشبكة المعلوماتية العالمية..... ١٥٢

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المقدمة

بدأت الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى الظهور فى الفكر البريطانى كفرع من المعرفة المتجانسة يتمتع بأسلوب خاص فى البحث والتفكير معا منذ أوائل القرن العشرين، وبالتحديد منذ أن شكل أصحاب المهنة مدرسة خاصة وضع دستورها كل من راد كليف براون Radcliff-Brown وبرونيسلاف مالينوفسكى B. Malinowski، وقد كان لهذه المدرسة إنجازات متميزة فى دراسة المجتمعات البدائية، وقد استمر أسلوبها الخاص فى البحث والتفكير حتى يومنا هذا، على الرغم من تطور الدراسات والبحوث الأنثروبولوجية وتحول الأنثروبولوجيين عن دراسة المجتمعات البدائية إلى دراسة المجتمعات الريفية والصناعية الأوربية.

ففى عام ١٩١٠ تعرف راد كليف براون على علم الاجتماع الفرنسى، ومنه انتقلت الأفكار الفرنسية إلى معظم الأنثروبولوجيين البريطانيين، وفى الحقيقة لقد التزم راد كليف براون وأتباعه بالمسلمات النظرية والمنهجية التى وضعها دوركايم لعلم الاجتماع فى فرنسا ولعل أهمها: تأكيد استقلالية علم الاجتماع عن علم النفس، وأهمية الدراسة "الوضعية" للظواهر الاجتماعية، والاهتمام بالتفسير السوسيولوجى لبحث الظواهر الاجتماعية، وهكذا لم تكن مصادفة أن يرتبط نموذج الأنثروبولوجيا الاجتماعية كما قدمه براون بالدعوة العلمية والطموح إلى تحويل الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا إلى علم طبيعى للمجتمعات بهدف الوصول إلى القوانين الاجتماعية العامة التى يمكن تطبيقها على جميع المجتمعات الإنسانية فى كل زمان ومكان بلا استثناء.

وعلى الرغم من اقتفاء راد كليف براون وأتباعه أثر التعاليم الفرنسية "الوضعية" لإقامة الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا، فإنه لم يتوافق تصور مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية مع هذا النموذج السوسيولوجى الفرنسى، فقد كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تمثل بالنسبة لمالينوفسكى شكلاً من أشكال الثقافة الغربية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التى تتصدى لفهم الثقافات الأخرى، ولقد كانت المشكلة الجوهرية بالنسبة لهذا الفرع من المعرفة فى رأيه تتمثل فى كيفية تفسير الباحث الأنثروبولوجى الغربى مختلف الأنماط السلوكية التى تصادفه فى البيئات الثقافية (الأجنبية) التى يتخذها الباحثون الأنثروبولوجيون عادة ميدانا لأبحاثهم؟ وقد كانت إجابته تنص على أنه لا يمكن فهم الحقائق الثقافية النوعية إلا باختبارها فى سياقها الاجتماعى الخاص.

وهكذا فعلى خلاف النموذج السوسيولوجى الفرنسى للأنثروبولوجيا الاجتماعية الذى حرص على وضع العقل "الاستقرائى" وسيطا بين الدارس الأنثروبولوجى والواقع الاجتماعى المدروس، والذى حرص على التمثيل الموضوعى لهذا الواقع بهدف التوصل إلى القوانين أو الشروط العامة للوجود فى شتى المجتمعات الإنسانية، كان النموذج المعرفى الذى قدمه مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية يهتم بفهم الواقع الوجدانى المتحقق للإنسان، ولم يكن هذا الواقع الوجدانى يمثل فى رأيه ظاهرة موضوعية يمكن دراستها استقرائياً من "الخارج" وإنما كان يمثل النتيجة المباشرة للاهتمامات الوجدانية للأفراد، ولذلك كان يجب على الباحث الأنثروبولوجى الغربى دراسته من "الداخل"، ومن ثم فقد رأى مالينوفسكى – وعلى الخلاف من رادكليف براون – أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية بمعناها الدقيق تحتاج إلى مؤازرة علم النفس. ولذا لم يهتم مالينوفسكى بالرصد الاستقرائى للواقع الاجتماعى وإنما اهتم بالتعبير السياقى عن المعانى الاجتماعية، ولذلك حرص على وضع اللغة وسيطا بين الدارس الأنثروبولوجى والواقع الاجتماعى المدروس، فقد كان الهدف الأساسى للأنثروبولوجيا الاجتماعية ينحصر – فى رأيه– فى تفريغ العوالم التصورية أو القياسات التمثيلية للمعانى التى يعيش فى ضوئها أعضاء المجتمع الأجنبى المدروس.

موضوع الدراسة:

من المعروف أن أهم خاصية من خصائص البحث الأنثروبولوجى هى دراسة الثقافة فى الميدان فالدراسة الميدانية هى عماد الدراسات الأنثروبولوجية، ومما لا شك فيه أيضاً أهمية المخططات النظرية وذلك لأنها هى التى تحدد للباحثين مجال الرؤية؛ فهى التى تحدد ما له صلة وثيقة بالبحث الميدانى وما ليس كذلك كما تحتم ما يتم

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رؤيته فى الميدان وتساعد فى تحليل البيانات، ويمكن تشبيه أهمية النظريـــة بالنســبة للمعرفة الأنثروبولوجية بأهمية الحواس بالنسبة للإنسان والتى من خلالها يســتطيع أن يحس ويشم ويسمع ويرى ويقدر الأمور.

ومن أجل ذلك جاء اختيار الباحث لنظرية من أهم النظريات المنهجية فى البحث الميدانى الأنثروبولوجى للمجتمعات وهى نظرية سياق الحال Context of situation التى ابتكرها عالم الأنثروبولوجيا الشـــهير برونيســـلاف مالينوفســـكى Bronislaw Malinowski (١٨٨٤ – ١٩٤٢م)، والتى خرج بها من دراسته الميدانيـــة الشـــهيرة لسكان جزر التروبرياند Trobrianders، والتى تبلورت من الصعوبات الكثيرة التـــى واجهته بدءاً من مشكلة تعلم اللغة المحلية وفهم العقلية الوطنية، ونهاية بكتابة التقريـــر أو النص الإثنوجرافى النهائى ووصف ثقافة الآخر البُدائى، ففـــى جولتـــه الميدانيـــة الأولى فى جزر التروبرياند (أغسطس ١٩١٤: مارس ١٩١٥) استطاع تدوين بعض المادة الإثنوجرافية (حول الأنساب والفولكلور). وحين عكف على إعـــداد ملاحظاتـــه بالإنجليزية اكتشف أن الأداة التى استخدمها فى جمع هذه المادة لم تكن الأداة الصالحة لجمع هذه المادة الإثنوجرافية (وهى الرطانـــة الإنجليزيـــة المحليـــة التـــى يجيـــدها الأهالى)[1]. وفى هذا الوقت المبكر لم تكن لديه أية استعدادات نظرية فى علم اللغـــة، ولم تتعد خبرته الميدانية باللغة "المحلية" غير المكتوبة خبرة المبشرين الذين كان لهـــم بعض الجهود مع اللغات غير المكتوبة (الوعظ التبشيرى أو ترجمة التراث المسيحى) ولم يكن على دراية بالمصاعب الكامنة فى الطريقة التبشيرية عند العمل مع اللغة غير المكتوبة، وكما كتب فيما بعد فإن الإجراءات التبشيرية كانت سطحية، وقـــد دونـــت شروحاتها للغات غير المكتوبة كما لو كانت هذه اللغات نسخة مرادفة مـــن اللغـــات الأوربية المكتوبة[2]. لقد عاش الدكتور مالينوفسكى بين الوطنيين بلا انقطاع، ملاحظاً لهم أثناء عملهم وأثناء لهوهم، ومتحدثاً معهم فى لسانهم المحلى الخاص، ومستخلصـــاً

---

(1) Malinowski, B.: Argonauts of the western pacific, Routledge & Kegan Paul, 1950, (The Introduction). p. 4.

(2) ————; The problem of meaning in primitive languages, Supplement to the meaning of meaning, by I. A. Richards & C. K. Ogden, London, 1938, p. 303.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معلوماته الإثنوجرافية من المصادر الأصيلة (الموثوق بها)، كالملاحظات الشخصية والإفادات الفورية التى يقدمها له الوطنيون مباشرة بلغتهم الخاصة دون تدخل من المترجمين[١].

وقد فضل مالينوفسكى اللغة الوطنية على الإنجليزية فى فهم الثقافة التروبريايندية، ولم يكن هذا التفضيل يعود فى رأيه إلى أن تعلم المصطلحات الوطنية فى ذاتها يعد أحد الطرق المختصرة التى تمكن الباحث الإثنوجرافى من التوصل إلى "المقولات الوطنية للفكر" أو إلى "التصنيفات الوطنية الخاصة"، وإنما كان يعود إلى أن أية معرفة للمصطلحات الوطنية لن تمثل للباحث مصدر عون إن لم تتم داخل سياقات الحال الخاصة بها[٢]، واعتقاده بأن المدخل الأنثروبولوجى الميدانى الدقيق مدخل يمر عبر اللغة واعتبر اللغة الطريق المختصر نحو فهم المقولات الاجتماعية التصورية السائدة، وقد أكد فى معظم مؤلفاته أن الدراسة الميدانية يجب أن تتم بعد أن يتعلم الباحث اللغة المحلية للمجتمع الذى يدرسه، فقد كان على وعى عميق بمشكلة الترجمة بقدر جعل معه هذه المشكلة هى المشكلة الأنثروبولوجية الأساسية. وبذلك جاءت ملاحظاته حول الترجمة مفيدة وحساسة، فقد كان منهجه الأنثروبولوجى فى الترجمة يتجه مباشرة نحو "معنى" الترجمة، وبصفة نهائية لتأكيد تبعية اللغة (المترجم منها) للسياق الثقافى الخاص[٣].

فقد كانت اللغة الكيرونية Kiriwinian (وهى لغة سكان جزر التروبرياند) أو الجزء الأكبر منها يصف معتقدات وأوضاع اجتماعية خاصة ولم يكن من الممكن الكتابة حول هذه اللغة أو ترجمة معانيها للقارىء الأوربى دون تقديم المرادفات التصورية التى عايشها مالينوفسكى فى بيئتها الثقافية الخاصة، فقد كان من المستحيل العثور على الكلمات الإنجليزية المباشرة (وهى اللغة التى قدم بها مالينوفسكى معظم

---

(1) Frazer, Sir, J.; "Preface" to B. Malinowski: Argonatus of the western pacific, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1950.

(٢) هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيا الاجتماعية واللغة، ترجمة محمود حمدى عبد الغنى، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٩، ص ١٢٠.

(٣) نفس المرجع، ص١٢١ – ١٢٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أعماله إلى العالم الأكاديمى)، وإنما يتم تقديم تلك المرادفات التصورية عن طريق شرح معانى اللغة الكيرونية شرحاً إنجليزياً، وهو أمر لا يتم بعيداً عن التنازل الشامل للثقافة الكيرونية. ومع ذلك يظل أمر لابد من تحقيقة فى هذا المجال، وهو فهم الطريقة التى تستخدم بها اللغة الكيرونية شفاهة لتبادل المعانى، وهى طريقة تختلف تماماً عن الطرق التى تستخدم بها اللغات الأوربية فى العادة فإلى جانب اختلاف استخدام الزمن النحوى أو أدوات التعريف أو حروف الجر أو الظروف المكانية والزمانية وغيرها من المظاهر اللغوية الصريحة بين اللغة الكيرونية واللغات الأوربية، تظل المنطوقات الكيرونية تحمل من القدرة التعبيرية التى ليس لها علاقة بأية مقولة من المقولات النحوية السابقة، فالكلمات تعتمد على المجاز Metaphore، وهذا فى حد ذاته يجعل تعريف معنى المفردات لا يمكن أن يستمد من الكلام فحسب وإنما من السياق ومن التقديرات الآنية للمعنى المجازى بين المتخاطبين، وهذا أمر يعوق أية محاولة للترجمة الحرفية، ولذلك رأى مالينوفسكى أن على المترجم نقل هذا المعنى العميق وبيان الاختلافات السياقية التى تكمن فى الاستخدام الشفهى للغات[1].

لقد كان مالينوفسكى حريصاً فى دراسته الميدانية على إعطاء الكلمات الوطنية لسكان جزر التروبرياند البعد الثقافى الخاص، فمن هنا اتجه إلى شرح المنطوقات بالطريقة التى تستخدم بها، حيث كانت الترجمة لا يمكن أن تتم دون الإشارة إلى تصور السياق الثقافى الخاص بها بما تحتويه من خلفيات فكرية وثقافية فريدة، ومن هنا خرج بنظريته "سياق الحال"، وقدم فى مقالته "مشكلة المعنى فى اللغات البدائية" عرضاً لتلك النظرية، أكد فيها على أن اللغة نموذج من الفعل أو نموذج من النشاط مثل كل النشاطات الاجتماعية التعاونية الأخرى، وأن المعنى لا يمكن تحديده إلا بمشاهدة المنطوق فى السياق الذى يستخدم فيه، حيث أن المنطوقات لا تنطق أو تفهم كأحداث مستقلة بذاتها وإنما تنطق وتفهم من السياق الاجتماعى والثقافى والفعلى والتقديرات الآنية للمعنى بين المتخاطبين.

ولقد شغلت نظرية السياق -كما قدمها مالينوفسكى- مكانة محورية فى علم اللغة

---

(1) Malinowski, B.; The problem of meaning, op. cit., pp. 299 – 300.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

البريطانى، إذ شكلت الأساس الذى قامت عليه أعمال مدرسة لندن فى علم اللغة، ومع ذلك فقد كان للتحليل السياقى الذى قدمه مالينوفسكى للمعنى فى جزر التروبريانـد مغزى مهم للأنثروبولوجيا الاجتماعية ذاتها، وعلى أقل تقدير فقد قدم مالينوفسكى بهذا التحليل لهذا العلم نموذجا ابستمولوجيا جديداً، نموذجا يختلف تماماً عن النموذج السوسيولوجى الفرنسى الذى قدمه راد كليف براون وأتباعه للأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا، وذلك لأنه بالنظر لمعنى الكلام الإنسانى فى الحدود التى ترمى إليها الأهداف العملية للمتحدثين فلقد ربط مالينوفسكى بنجاح بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والاهتمام بتأويل النشاطات العملية للأفراد، وهكذا لم تعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية تهتم بـ "التمثيلات الاجتماعية" الدوركايمية، أو تحرص على استخلاص أو تصوير البناء الاجتماعى معتمدة على المنهج الاستقرائى، وإنما أضحت تهتم بتحليل الكلام الإنسانى داخل سياق النشاطات الإنسانية العملية التى تغلفها معتمدة فى ذلك على المنهج التأويلى، فقد كانت اللغة تمثل – فى رأى مالينوفسكى- مرشداً جوهرياً لفهم النشاطات الإنسانية المتداولة فى المجتمع، ومن ثم فهم النظرية الاجتماعية التى تسعى الأنثروبولوجيا الاجتماعية لفهمها، ومن ثم يمكن تحديد الهدف الأساسى الذى تسعى إليه هذه الدراسة فى تناول النظرية السياقية التى قدمها مالينوفسكى لمنهج البحث الميدانى فى محاولة للوقوف على أهم ملامح هذه النظرية والإسهامات التى يمكن أن تقدمها فى دراسة الواقع الاجتماعى لأى مجتمع من المجتمعات بشكل عام.

أهمية دراسة الموضوع:

إن المطلع على الدراسات الأنثروبولوجية التى ظهرت فى لغتنا العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين فيما يتصل بالأسس النظرية والمنهجية للأنثروبولوجيا الاجتماعية لا يجد للإسهامات اللغوية البارزة التى قدمها مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم اللغة أى أثر فى خطابنا الأنثروبولوجى، فلقد عاش مالينوفسكى فى بريطانيا فترة من الوقت وكان المتحدث الرسمى تقريبا للأنثروبولوجيا الاجتماعية إلا أن زملاء المهنة البريطانيين قد عاملوا أفكاره بسبب جنسيته البولندية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما لو كانت آتية من خارج الأنثروبولوجيا الاجتماعية وكأنه لم يشارك فى وضع الأسس النظرية والمنهجية للأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا، ولم يقدم نموذجاً معرفياً مبتكراً لهذا العلم الذى احتلت فيه نظريته المنهجية المكانة المحورية فى أسلوب العمل الميدانى والكتابة الأثنوجرافية على حد سواء، ولكن الغريب -وهو الأمر الذى يقدم المبرر الأقوى لدراسة هذا الموضوع- هو عدم اهتمام المتخصصين العرب بتطبيق أفكار مالينوفسكى فيما يتعلق بقضايا نظرية السياق فى دراساتهم الميدانية وأسلوب كتاباتهم للإثنوجرافيا، واكتفائهم بترويج النموذج السوسيولوجى الفرنسى الذى قدمه راد كليف براون للأنثروبولوجيا الاجتماعية والذى احتلت فيه فكرة "البناء الاجتماعى" المكانة المحورية وكأن هذه الفكرة تمثل كل الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وفى هذا السياق يمكن بلورة أهمية الدراسة الحالية فى التعرف على النموذج السياقى الذى قدمه مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية، وإسهامات هذا النموذج فى دراسة ثقافة المجتمعات، وذلك كخطوة أساسية للاستفادة منها فى دراستنا الإثنوجرافية لمجتمعاتنا المحلية العربية.

منهج الدراسة:

إذا كان الحديث عن أهمية الدراسة قد قصد منه تقديم المبررات القوية لإنجازها، فإن هذه المبررات ذاتها تزيد من صعوبة قيام أى باحث بها، وعلى أقل تقدير فإنها تحتم عليه منذ البداية ليس فقط تحديد السياق التاريخى الممتد لنظرية السياق عند مالينوفسكى، وإنما أيضاً تحديد نقاط الارتكاز المحورية التى سادت الخطاب الأنثروبولوجى حول المنهج فى بريطانيا فى النصف الأول من القرن العشرين، وهو أمر يُلزم الباحث بفهم أهم التيارات المنهجية السائدة، وذلك لأن ملامح المنهج الميدانى فى الأنثروبولوجيا ذاتها لم تكن وليدة جهد أكاديمى مستقل، وإنما كان وليد الحاجات العملية المباشرة التى صادفت العلماء أثناء مهامهم الميدانية، ولقد لعبت التخصصات العلمية الأولى للعلماء وأمزجتهم الشخصية دوراً مهما فى بلورة الممارسات الميدانية السائدة فى هذا العلم.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا إذا كانت هذه الدراسة تطلبت من الباحث التعرف على المكانة التى شغلتها النظرية السياقية التى قدمها مالينوفسكى لمنهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، فإنها لم تغفل بأية حال عن فهم الروافد الفكرية الممتدة التى شكلت الخلفية الأساسية لنظرية السياق عند مالينوفسكى لأن فهم هذا السياق يمكن أن يساعدنا على التعرف على الآفاق الحقيقية التى وضعها مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية ذاتها فى بريطانيا. وهكذا فمع أن الدراسة قد تبدو أنها تقدم نموذجاً خاصا من المعرفة المنهجية تنتمى لمجال محدد من الأنثروبولوجيا الاجتماعية، أو أنها دراسة مكتبية وثائقية لنظرية السياق عند مالينوفسكى إلا أنها ليست كذلك بالتحديد، وذلك لأن هذه الدراسة وإن كانت تهتم بإبراز النموذج السياقى الذى قدمه مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية فإنها لم تقتصر على فهم هذا النموذج بأية حال، وإنما اهتمت أيضاً باستقصاء الروافد الفكرية الجانبية التى دعت مالينوفسكى والآخرون إلى إنشاء نماذج الأنثروبولوجيا الاجتماعية الخاصة بهم والمقارنة بينها، وهكذا فإذا كان الباحث قد تناول الأصول المعرفية والفكرية التى دفعت مالينوفسكى للتفكير فى التحليل السياقى للمعنى فإنه قد تناول أيضاً الأصول المعرفية التى دفعت الآخرين وبشكل خاص راد كليف براون وأتباعه إلى عدم التفكير فى مثل هذا التحليل، فذلك هو السياق النقدى الذى تم تناول موضوع الدراسة فى ضوئه.

محتويات الدراسة:

تتضمن هذه الدراسة مقدمة وخاتمة وأربعة فصول. فى مقدمة الدراسة أشار الباحث إلى موضوع الدراسة وهو نظرية سياق الحال التى تعتبر من أهم النظريات المنهجية فى البحث الميدانى الأنثروبولوجى للمجتمعات، والتى ابتكرها عالم الأنثروبولوجيا الشهير برونيسلاف مالينوفسكى، وجاءت أفكارها من الصعوبات التى واجهته فى الميدان، ثم انتقل الباحث للحديث عن أهمية دراسة الموضوع، والمنهج المتبع فى الدراسة، والحديث عن محتويات الدراسة.

وأمّا الفصل الأول فقد جاء بعنوان "نظرية السياق ومنهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية"، وفيه تناول الباحث ارتباط نظرية السياق كما قدمها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

برونيسلاف مالينوفسكى بمنهج البحث الميدانى باعتبارهـا واحـدة مـن النظريـات المنهجية التى تقيم منهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على الملاحظة بالمشاركة، ولذلك تناول الباحث الجهود الأنثروبولوجية المبكرة التى بذلها الرواد فـى البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا التطورية، وهى جهود قامت إلى حد كبيـر علـى تصنيف المواد الإثنوجرافية من التقارير التى يقدمها غير المتخصصين مثل الرحالـة والمبشرين والإداريين الاستعماريين والملاحـين وغيـرهم بهـدف توثيـق العلمـاء لنظرياتهم الخاصة بمراحل التطور الإنسانى. ثم انتقل الباحث إلى تناول الجهود التـى بذلتها مدرسة كمبردج نحو الدراسة الميدانية المكثفة قبيل الحرب العالمية الأولى. ثـم انتقل الباحث إلى تناول تجربة البحث الميدانى لدى مالينوفسكى وهى التجربـة التـى أبرزت أهمية ملاحظة الوقائع الثقافية فى سياقها الثقافى الخاص. ولقد أنهى الباحـث هذا الفصل بعرض نظرية السياق وإبراز النماذج الثلاثة لهذه النظرية والتـى ترشـد الباحث الميدانى إلى كيفية حصوله على المعلومات الطازجة (الواقعية) عـن طريـق ملاحظة الحياة الوطنية فى ضوء فكرة التبعية للسياق.

أمّا الفصل الثانى وهو بعنوان "الوظيفيـة السـيكوبيولوجية عنـد مالينوفسـكى وعلاقتها بنظرية السـياق"، وقـد خصصـه الباحـث لدراسـة ملامـح الوظيفيـة السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى ورفضه للأفكار السوسيولوجية الفرنسية التى قـدمها دور كايم، ولذلك تناول الباحث النموذج السوسيولوجى الذى قدمه دور كايم لدراسـة الظواهر الاجتماعية ونموذجه الوظيفى فى تفسير هذه الظواهر، ثم قام الباحث بإبراز دور راد كليف براون فى نقل الأفكار الدوركايمية الفرنسية إلى الفكر الأنثروبولوجى البريطانى وتأكيده لفكرة البنـاء الاجتمـاعى كموضـوع أساسـى للأنثروبولوجيـا الاجتماعية وارتباط معنى الوظيفة عنده بهذا البناء، ثم انتقل الباحث لإبراز الوظيفيـة السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى واهتمامه بالتنظيم السيكوبيولوجى للأعراف والـنظم الإمبيريقية والتفسير الذاتى لهذه الأعراف والنظم الاجتماعية فى سياقها الثقافى الـذى لا ينفصل عن زمن الملاحظة الشهودية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمّا الفصل الثالث فقد جاء بعنوان "نظرية الثقافة عند مالينوفسكى"، وقد تناول فيه الباحث رؤية مالينوفسكى "للثقافة" من المنظور السيكوبيولوجى اللاتـــاريخى، ولـــذلك تناول الباحث كيف ربط مالينوفسكى الثقافة باحتياجات الإنسان البيولوجية، ثم انتقـــل الباحث لدراسة موقف مالينوفسكى من مفهوم الرواسب الثقافية وكيف كانت سبباً فـــى تأخر العمل الميدانى، كما قام الباحث بدراسة الأسباب التى دفعت مالينوفســـكى إلـــى رفض منهج التأويل التاريخى واعتناقه للمنظور الوظيفى التزامنى فى فهـــم وتأويـــل الظواهر الثقافية، وذلك قبل أن ينتقل الباحث إلى عرض أهم الخصـــائص الأساســـية للثقافة ودعائمها عند مالينوفسكى، وقد أنهى الباحث هذا الفصل بإبراز الدور الكبيـــر لأفكار مالينوفسكى –فى تفسيره للثقافة من خلال نظريته السياقية– فى تقديم نمـــوذج جديد للبحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

أمّا الفصل الرابع فقد جاء بعنوان "تطبيقات نظرية السياق فـــى الأنثروبولوجيـــا الاجتماعية"، وقد تناول فيه الباحث مدى التزام علمـــاء الأنثروبولوجيـــا الاجتماعيـــة بالتعاليم المالينوفسكية فيما يتعلق بتقنيات إجراء البحث الميدانى التى قـــدمتها نظريـــة السياق سواء فى الدراسات البريطانية أو العربية مع التركيز على الدراسات العربيـــة بصفة خاصة.

أمّا الخاتمة فقد عرض الباحث فيها أهم النتائج التى انتهت إليها الدراسة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الأول

نظرية السياق ومنهج البحث الميدانى
فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية

- تمهيد.

أولاً: تجربة البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا التطورية.

ثانياً: الدراسة المكثفة قبيل الحرب العالمية الأولى.

ثالثاً: برونيسلاف مالينوفسكى والبحث الميدانى.

رابعاً: نظرية السياق: عرض وتحليل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تمهيد:

تمثل نظرية سياق الحال Context of Situation أو الأفكار المبتكرة التى قدمها عالم الأنثروبولوجيا الشهير برونيسلاف مالينوفسكى B. Malinowski (١٨٨٤ - ١٩٤٢م) والخاصة بتفسير اللغة باعتبارها نموذجاً من الفعل mode of action وليس باعتبارها تعبيرا عن الفكر a counter - sign of thought (كما نص على ذلك التراث الفلسفى واللغوى الأوربى لفترة امتدت لأكثر من ألفى عام) واحدة من النظريات المنهجية الأصيلة التى تقيم منهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على الملاحظة بالمشاركة، كما تشكل فى هيئتها الإثنوجرافية هذه عنصراً مهماً فى علم اللغة البريطانى وفى فلسفة اللغة العادية كما قدمها فيتجنشتاين Wittegenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١م)، فمن ناحية استثمر فيرث J. R. Firth (١٨٩٠ - ١٩٦٠م) (أول أستاذ لعلم اللغة فى بريطانيا) نظرية السياق وأخضع تحليله اللغوى لها، ومنه شكلت نظرية السياق محور الارتكاز فى مدرسة لندن لعلم اللغة، ومن ناحية أخرى فقد مارست هذه النظرية تأثيراً بالغاً فى الفلسفة وبخاصة لدى فيتجنشتاين بقدر دفعه إلى الخروج على فلاسفة العلم بحلقة فيينا(*) Vienna Cycle[1] فبتأثير من نظرية السياق التى قدمها مالينوفسكى والتى أكدت أهمية فهم اللغة فى ضوء الاستخدام باعتبارها نموذجاً من الفعل وليس باعتبارها العلامة المقابلة للفكر، سلم فيتجنشتاين بأن معانى الكلمات تكمن فى الاستخدام وأن المرء لا يستطيع التكهن بكيفية أداء الكلمات لوظائفها الدلالية. وإنما عليه أن ينظر فى استخداماتها الفعلية وأن يتعلم من ذلك[2].

(*) حلقة فيينا Vienna Cycle تشكلت من جماعة من الفلاسفة العلماء كانوا يعقدون حلقات دراسية منتظمة بفيينا فى العشرينيات وبداية الثلاثينيات وكانوا يدعون إلى تحصين فلسفة العلم ضد الميتافيزيقا، فقد كان الهدف الأساسى للفلسفة عندهم هو بناء النظريات العلمية.

(1) Giddens, A: Trends in the Philosophy of the Social Sciences: In Barry Dufour (ed.) New Movement in the Social Sciences and Humanities, pp. 7 - 19.

(2) Firth, J. R.; Ethnographic Analysis of Language with reference Malinowski's views; In Man & Culture; by R. Firth, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1970, p. 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن المهم فى هذا المقام الإشارة إلى عدم الوضوح أو الخلط الذى نشاهده فى تراثنا العربى بين مفهوم "المقام" الذى قال به البلاغيون العرب ونظرية السياق كما قدمها مالينوفسكى. وسوف نكتفى فى هذا المقام بما ذكره تمام حسان فى كتابه اللغة العربية معناها ومبناها (صفحات ٣٣٧ وما بعدها). فقد ذكر أن مالينوفسكى حين قدم نظرية السياق لم يكن يعلم أنه مسبوق إلى هذا المفهوم بما يزيد عن الألف عام، فقد عرف البلاغيون العرب مفهوم: "لكل مقام مقال"، أو "لكل كلمة مع صاحبتها مقام"، وأن هذا المفهوم يصلح للتطبيق ليس على اللغة العربية فقط وإنما على اللغات الإنسانية جمعاء، وعلى الرغم من ذلك فلم تجد هذه الفكرة العربية من الدعاية الكافية على المستوى العالمى ما وجده مفهوم مالينوفسكى بسبب انتشار نفوذ العالم الغربى فى كل الاتجاهات[١].

ويرى الباحث أنه لا يوجد أى تداخل بين المفهوم العربى "للمقام" ونظرية مالينوفسكى حول السياق، وذلك لأن التصور اللغوى الذى قدمه البلاغيون العرب لفكرة "المقام" كشرط أساسى من شروط تحليل الدلالة اللغوية فى اللغة العربية، يختلف تمام الإختلاف عن التصور الإثنوجرافى الذى قدمه مالينوفسكى لنظرية السياق بوصفها أحد الشروط المنهجية الضرورية لفهم "الثقافة" الأجنبية والكتابة حولها فى اللغة الإنجليزية. ومن هذا المنظور لا يمكن إرجاع نظرية السياق عند مالينوفسكى إلى مفهوم "المقام" عند البلاغيين العرب. فقد ارتبطت نظرية السياق عند مالينوفسكى بالظروف البُدائية "الشفاهية" التى أجرى فيها بحثه الميدانى بين سكان جزر التروبرياند[*] بغينيا الجديدة، وبشكل أخص حين عكف على ترجمة معانى

---

(١) يمكن الرجوع إلى: تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ط١، ص٣٣٧.

(*) سكان جزر التروبرياند Trobrianders: درسهم مالينوفسكى، وكتب عنهم الكثير من الكتب والمقالات، وهم (ميلانيزيون) يتحدثون لغة تدعى (اللغة الكيرونية)،وهم يمارسون السحر على نطاق واسع، ويقومون برحلات (الكولا)، ويقوم نظامهم الاجتماعى على الانتساب إلى الأم، ويشتهرون ببراعتهم فى الملاحة. وقد كان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المصطلحات المحلية إلى اللغة الإنجليزية. فهو لم يكن فى الأصل باحثاً لغوياً يهتم بدراسة المعنى اللغوى فى لغته الأم مثلما كان الأمر لدى اللغويين العرب، وإنما كان باحثاً إثنوجرافياً دعته الحاجة المنهجية لدراسة الثقافة الشفاهية البدائية والكتابة حولها إلى الانتقال إلى اللغة، وقد صاغ أفكاره فى هذا الميدان لا من منظور علم الدلالة وإنما من منظور منهج البحث الميدانى الذى فرض طبيعة الموضوع فيه مواجهة أعضاء أحد المجتمعات الذى يتحدث أعضاؤه لغة مغايرة عن اللغة التى يتحدثها الدارس الأنثروبولوجى. وقد كان اهتمام مالينوفسكى بالمعنى يتجه إلى تحليل السياق الثقافى للغة المنظوقة وليس النص اللغوى المكتوب.

وبإيجاز وكبرنامج للعمل فى هذا الفصل فإن الباحث لم يهتم ببيان أهمية نظرية السياق فيما يتعلق بالدرس اللغوى، وإنما سيحرص على فهم أهمية هذه النظرية فيما يتعلق بمنهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولذلك يرى الباحث أنه عند تعيين موضع نظرية السياق بالنسبة لمنهج البحث الميدانى، أنه من الواجب أولاً تناول أهمية البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية والتغيرات المتعاقبة التى ميزت الآثار الميدانية فى الأنثروبولوجيا ونظرية السياق على حد سواء. ومن هذا المنظور سوف يتناول الباحث فى هذا الفصل:

أولاً: تجربة البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا التطورية.

ثانياً: الدراسة المكثفة قبيل الحرب العالمية الأولى.

ثالثاً: برونيسلاف مالينوفسكى والبحث الميدانى.

رابعاً: نظرية السياق: عرض وتحليل.

= نصف اقتصادهم - حين درسوا بين عامى ١٩١٤ و١٩١٨ - يقوم على زراعة اليام، وثلثه على صيد الأسماك، كما كانوا يزاولون - إلى حد محدود جداً - تربية الحيوانات، وجمع الغذاء، ولا يوجد تقدير لنفوسهم، وهم اليوم صيادوا جواهر أغنياء، ويعتبرون من أكثر سكان منطقة ميلانيزيا حضارة. انظر: لوسى مير، مقدمة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة شاكر مصطفى سليم، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٣، ص٣٨٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً - تجربة البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا التطورية:

من الثابت أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدأت فى وقت كان لا يزال الأنثروبولوجيون يجلسون فى أبراجهم العاجية ويقومون بتصنيف المواد الإثنوجرافية من التقارير التى يقدمها الرحالة والمبشرون والإداريون الاستعماريون والملاحون... وغيرهم لتوثيق نظرياتهم التأملية الخاصة بمراحل التطور الإنسانى. فقد كانت الكتابات الرئيسية فى الأنثروبولوجيا التطورية تقوم على مثل هذا النوع من المعلومات التى يجلبها غير المتخصصين من المناطق الجغرافية النائية التى لا يعرفون عنها شيئا سوى أسمائها إلى أوروبا حيث كان العمل المهنى مقسما فى الأنثروبولوجيا التطورية بين هؤلاء والمنظرين المكتبيين الذين يكتفون بممارسة ذكائهم التأملى لإعادة كتابة تاريخ الجنس البشرى(١).

وفى الواقع لقد كان الأنثروبولوجيون التطوريون مهتمين أيضاً بتحسين كم المادة الإثنوجرافية الميدانية التى يجلبها هؤلاء الهواة وكيفها ومن ثم فقد حرصوا على تطوير التقاليد الميدانية، وقد ظهر ذلك جلياً أثناء إعداد الرابطة البريطانية للاستبيان Notes & Queries in Anthropology(*) والذى أعد لتدعيم الملاحظات الميدانية

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ٢٠٠٤، ص٨.

(*) من الجدير بالذكر أن أقدم دليل للعمل الميدانى هو Notes & Queries in Anthropology، وقد صدر لأول مرة عام ١٨٧٤م عن الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم وأعيد طبعه عدة مرات بعد ذلك، وصدرت طبعته السادسة عام ١٩٥١م عن المعهد الملكى الأنثروبولوجى فى بريطانيا وأيرلندا، ولهذا فإن الدليل يركز على الموضوعات التى تهتم بها الأنثروبولوجيا الاجتماعية بصفة خاصة، ومن الأدلة التى وضعت وروعيت فيها ظروف العمل الحقلى فى المجتمعات الإفريقية الدليل الذى وضعه جورج فوكار G. Foucart رئيس الجمعية الجغرافية السلطانية بالقاهرة عام ١٩١٩، ومن الأدلة الحديثة فى العمل الحقلى ذلك الدليل الذى أشرف على وضعه محمد الجوهرى بعنوان "الدراسة العلمية للعادات والمعتقدات الشعبية"، وهو يتصل بصفة خاصة بالدراسات الفولكلورية. وقد وضع أحمد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التى يقوم بها الهواة وتمكينهم من جلب المعلومات الدقيقة الضرورية للقيام بالدراسة التاريخية للجنس البشرى داخل الوطن. فقد حدث وأن خضع العمل الأنثروبولوجى لعملية الفصل بين العناصر الميدانية والنظرية. والفضل فى ذلك يعود إلى تايلور Sir B. Tylor (١٨٣٢ - ١٩١٧م) الذى كان مهتماً طوال حياته الأكاديمية بقضايا "المنهج". وفى الحقيقة فقد كان تايلور من أوائل العلماء الذين نظروا إلى المجتمعات البدائية بذاتها بوصفها موضوعاً من المهم أن يقصر عليه العلماء جهودهم والذين اهتموا بتجميع المعلومات الإثنوجرافية التى كانت متداولة حول المجتمعات البدائية فى ذلك الحين التى قدمت للقراء فى صورة منهجية منظمة. والأهم من ذلك هو حرصه على عدم التورط فى البراهين "الافتراضية" التى تورط فيها أسلافه(١).

فى البداية سافر تايلور إلى المكسيك وهناك واجه الظواهر الثقافية والعادات والتقاليد المثيرة للفضول للمرة الأولى فى حياته، وفى عام ١٨٦١م نشر كتاب الأنواك Anahuac حول رحلته المكسيكية، وفى عام ١٨٦٥م نشر كتاب "أبحاث فى التاريخ المبكر للجنس البشرى وتطور الحضارة" Researches into the Early History of Mankind and Development of Civilization وفى عام ١٨٧١م نشر كتاب "الثقافة البدائية" Primitive Culture ولقد كان لهذا الكتاب تأثيراً مهماً على تطور الأنثروبولوجيا، فقد عمل هذا الكتاب على تحول الاهتمام من الأركيولوجيا والقانون إلى دراسة الدين والمعتقدات البدائية، وفى عام ١٨٨١م نشر كتاب: الأنثروبولوجيا: مقدمة فى دراسة الإنسان Anthropology: An Introduction to the Study of Man، وفى عام ١٨٨٣م عُين مديراً لمتحف جامعة أكسفورد ثم عُين مدرساً فى

= أبو زيد دليلاً آخر وهو لدراسة رؤى العالم ضمن برنامج بحوث السياسات الاجتماعية بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. انظر:

فتحية محمد إبراهيم ومصطفى حمدى الشنوانى: مدخل إلى مناهج البحث فى علم الإنسان "الأنثروبولوجيا"، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٨، ص ١٥٥ - ١٥٦.

(١) المرجع السابق، ص٩٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأنثروبولوجيا بالجامعة نفسها، وفى عام ١٨٩٦م أصبح أول أستاذ للأنثروبولوجيا بجامعة أكسفورد، وطوال هذه الفترة اشتهر تايلور بأسلوب بحثه المتأنى، وباستخدامه النقدى للمعلومات الإثنوجرافية وبموقفه النظرى المقنع(١).

كان تايلور عالما وضعياً Positivist، والعنصر المحورى فى المذهب الوضعى هو التسليم بخضوع العالم الطبيعى والإنسانى لهيمنة القوانين الطبيعية ذاتها، وعلى ذلك تتماثل عناصر التفسير والتصنيف فى العالمين الطبيعى والاجتماعى فى ضوء القوانين الطبيعية الكونية، أو فى ضوء قوانين السبب والنتيجة(٢). ولذلك فقد رأى أن على الباحث الإثنولوجى أن يبحث دائماً عن العادات والتقاليد البدائية الموجودة فى أنحاء العالم، وتفسيرها فى ضوء العمليات الفكرية للعقل. فالعقل هو المفتاح الذى يمكن تطبيقه لفهم المعتقدات والممارسات البدائية(٣).

وعلى الرغم من ذلك لم يكن اختبار النظم الثقافية يمثل بالنسبة لتايلور اختبارا للعقل وحده وإنما كان اختباراً للعقل والخبرة معاً، فقد كان تايلور مفكراً تجريبياً يؤكد على الخبرة الإنسانية بوصفها المصدر الأساسى لكل ما يفكر فيه البشر ويعتقدون فيه – حتى إنه عد الرياضيات علما استقرائياً – فالحقائق الرياضية تقوم فى رأيه على الخبرة الفعلية، ولقد استشهد بجون ستيوارد مل J. S. Mill (١٨٠٦ – ١٨٧٣م) الذى اقتنع أن مبدأ "الإضافة" فى الحساب لا يشتق من المنطق وإنما من الحواس والملاحظة الفعلية للظواهر(٤).

لقد صبغت الوضعية نظرية التطور الثقافى عند تايلور، ومن المعروف أن الوضعية تقوم على افتراض مؤداه أن بمقدور الملاحظ الإثنولوجى أن يسمو على قيمه الثقافية وأن يوجد نوع من "المسافة العقلية" بينه وبين الموضوع المدروس، وقد كان تحقيق ذلك يتطلب – فى رأى تايلور – إيجاد قياس ما لخيال الملاحظ ومدى قدرته

---

(١) المرجع السابق ص ٩٩ – ١٠٠.

(2) Hatch, E.; Theories of Man & Culture, Columbia University Press, U. S. A., 1973. p.13.

(3) Ibid. p. 20.

(٤) محمود حمدى عبد الغنى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص١١٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على رؤية المواد الإثنوجرافية كما يراها أصحاب الثقافة البدائية أنفسهم[١]، ولقد كان تايلور واعياً بمشكلة الفهم الشخصى للظواهر الثقافية الأجنبية وقد رأى أن إعادة التفكير (الأوروبى) فى الأعراف البدائية يوجد الاحتمال لأن يفرض الملاحظ الأوروبى عليها مظاهر تفسيرية هى فى الأصل غريبة تماماً عنه. وعلى ذلك لم يكن من الممكن فى رأى تايلور الحكم على خبرات الرجل البدائى وتأويلاته الأدنى للأعراف فى ضوء القواعد العقلانية الخاصة بالتعليم الأوروبى الأعلى. فى هذه الحالة لم يكن على الملاحظ (الهاوى) التطلع إلى معرفة الأعراف البدائية فى ضوء الحقائق العقلية التى اختبرها عقله الأوروبى وإنما يجب أن يتطلع إلى الاستدلال الذى يمكن أن يستنتجه عقل الرجل البدائى من هذه الأعراف[٢].

لقد كانت مشكلة تايلور تنحصر فى كيفية إعادة التفكير (من المنظور الأوروبى) فى الأعراف البدائية وكيف يمكن بحث التفكير البدائى (أو الطفولى) أو المعتقدات البدائية الخرافية من المنظور الأوروبى، ولذلك ساهم تايلور فى تأليف Notes & Queries in Anthropology وحرص على توجيه الباحثين نحو جمع المظاهر الامبيريقية المفترضة، وقام بتحذير الجامعين للمواد الإثنوجرافية من طرح الأسئلة غير الضرورية وإنما عليهم الاهتمام بتسجيل مشاهدات الطقوس الدينية ومن ثم الاستقصاء عن معناها. وبالمثل فقد نصح بجمع النصوص الأسطورية وتسجيلها فى لغتها البدائية ثم ترجمتها بالاستعانة بأحد المترجمين الماهرين[٣].

لقد كان هذا الأسلوب هو الأسلوب الطبيعى - عند تايلور - للحصول على الأفكار والمعتقدات اللاهوتية من "العقل البدائى"، ولذلك فقد عقد صداقات عديدة مع الهواة من المقيمين فيما وراء البحار الذين كانوا يقومون بجمع المواد الإثنوجرافية المباشرة، وبخاصة المبشر لورمير فيزون L. Fision، ومع أن تايلور لم يكن يقوم

---

(١) المرجع السابق، ص١١٢.

(٢) نفسه، ص١١٣.

(3) Stocking, G. W.; "The Ethnographer's Magic: Field work in British Anthropology from Tylor to Malinowski", in History of Anthropology, University of Wisconsin Press, vol. 1, 1983, pp. 70 - 120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالتدريب المنظم للدارسين وإعدادهم للقيام بالبحث الميدانى الأنثروبولوجى فقد قرأ محاضراته العديدون من هواة جمع المواد الإثنوجرافية وقاموا بحملها إلى المستعمرات، وقد كان منهم على سبيل المثال المبشر كودرينجتون R. H. Codrington، وفى الواقع فقد أسس تايلور عدد من اللجان من داخل الرابطة الأنثروبولوجية البريطانية من أجل البحث الأنثروبولوجى الأمبيريقى فى الإمبراطورية الاستعمارية وقد كان منها لجنة القبائل الشمالية بكندا (وقد سبق للمكتب الإثنولوجى الأمريكى أن أرسل باحثين مؤهلين للإقامة بين القبائل المكسيكية الغربية) ثم لجنة حول جزر آسيا ولجنة لمواطنى الهند ولجنة المسح الإثنولوجى للمملكة المتحدة (وذلك قبل أن تستهل البعثات الميدانية من خارج الرابطة الأنثروبولوجية البريطانية إلى مضايق توريس وإلى جزر مالاى Malaya) وقد قام هواريتو هال H. Hale بإعداد "نشرة البحث" من أجل استخدام الموظفين الحكوميين والمبشرين والرحالة.. وغيرهم للحصول على المعلومات الميدانية الموثقة(١)(*).

لقد كان معظم الأنثروبولوجيين البريطانيين فى الأصل علماء طبيعة وقد كانوا يحتفظون بعلاقات فعالة مع المبشرين، ولذلك فقد أسهمت هذه العلاقات مع بزوغ المنهج الميدانى (الذى كان يتماثل مع الخبرة التبشيرية)، وقد كان الرمز الأساسى فى هذه المرحلة المبكرة لتطور المنهج الإثنوجرافى هو ألفريد كورت هادون A. C. Haddon

---

(1) Ibid.

(*) من الجدير بالذكر أن فرانز بواس F. Boas كان أحد الباحثين الذى قام هال H. Hale بتعيينهم فى اللجنة الخاصة بالقبائل الشمالية فى كندا، وقد إستمرت علاقته بالرابطة البريطانية لفترة امتدت لعقد من الزمان، وقد كان ذلك يمثل طوراً مهماً فى تطور المنهج الإثنوجرافى البريطانى. فقد كان بواس عالما طبيعياً مدرب أكاديمياً وقد انهمك فى صياغة النظرية الأنثروبولوجية وتقييمها وذلك قبل أن تتحول الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى تفضيل المعلومات التى جمعها المبشرون على المعلومات التى يجمعها علماء الطبيعة وذلك لأن علماء الطبيعة لم يتعلموا اللغات البدائية وإنما اعتمدت معلوماتهم على الزيارات القصيرة للقبائل البدائية. انظر: المرجع السابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٨٥٥ - ١٩٤٠م) ووالتر بالدوين سبنسر W. B. Spencer وكلاهما كان من الجيل بعد الدارونى. لقد نشأ سبنسر تحت رعاية عالم الحيوان هنرى موزلى H. Moseley (١٨٨٧ - ١٩١٥م) بأكسفورد، أما هادون فقد نشأ تحت رعاية عالم الفسيولوجيا مايكل فوستر M. Foster بكمبردج. ولقد بدأ كل منهما العمل المهنى كعالمى حيوان فى جامعات تقع على محيط الإمبراطورية الاستعمارية، وقد اهتم كل منهما بالمواد الإثنوجرافية بينما كانا يقومان ببحوث ميدانية حيوانية وقد استفاد كلاهما من الاهتمامات الجديدة وأنهيا سيرة حياتهما المهنية بوصفهما عالمين أنثروبولوجيين[١].

وبالنسبة لهادون فقد ذهب للمرة الأولى إلى مضايق توريس Torris Straits فى عام ١٨٨٨ وقد كانت أهدافه العلمية أهدافاً داروينية لدراسة حيوانات المنطقة ونماذج الشعب المرجانية وعلى الرغم من ذلك وبمجرد أن استقر على جزيرة Mabuaig وبدأ فى التحدث مع الوطنيين من كبار السن أصبح مقتنعاً أن هذه الفرصة يجب اقتناصها وإلا سوف تضيع المعلومات إلى الأبد، وعلى الرغم من أنه واصل بحثه الحيوانى فقد استغل أوقات فراغه فى الانشغال بالإثنوجرافيا وقبل عودته إلى إنجلترا عام ١٨٨٩م كان اهتمامه الرئيسى قد تغير بالفعل إلى الأنثروبولوجيا، ومن أجل ترسيخ نفسه فى "مدرسة الأنثروبولوجيا" بدأ فى التخطيط للبعثة الأنثروبولوجية الثانية. ولأنه كان واعياً أن مجالات البحث الأنثروبولوجى كانت قد تطورت إلى حدود تتجاوز حدود كفاءته فقد بحث عن معاونة هيئة من الزملاء تتمتع بمؤهلات خاصة بحيث يمكنهم تقسيم عمل البحث الأنثروبولوجى (الخصائص الفيزيقية، الفنون، الحرف، الموسيقى، اللغة، الدين، الفولكلور)[٢].

وكما حدث فقد انتهى إلى تجنيد عدد من الأسماء التى أصبحت فيما بعد أعلاماً فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وقد كان أول من قام بتجنيده زميل كمبردج ريفرز W. H. R. Rivers (الذى درس الطب فى بداية حياته تحت رعاية عالم الأعصاب جاكسون H. Jackson ثم اتجه لدراسة علم النفس التجريبى فى ألمانيا). وبناء

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على اقتراح ريفرز تم تجنيد مايرز Ch. Myers (١٨٧٣ - ١٩٤٦م) الذى كان موسيقياً وتلميذ آخر له هو ماكدوجال W. McDougal (١٨٧١ - ١٩٣٨م)، وبناء على اقتراح المبشر كودرينجتون تم ضم سيدنى راى S. Ray المدرس الابتدائى بلندن المتخصص فى اللغات الماليزية، ثم تلميذ هادون ويلكن W. Wilkin الطالب الذى تم تجنيده ليقوم بالتصوير. أما سيليجمان Ch. Seligman (١٨٨٦ - ١٩٧٥م) فقد كان طبيباً تطوع بخدماته من تلقاء نفسه واكتمل الفريق به بوصفه متخصصاً فى الطب البدائى[١].

وبعد العودة تفرغ هادون للإشراف على تحرير التقارير. ولقد أثبت هادون فى مواضع عديدة عمقاً كبيراً وحساسية بمشكلات المنهج الإثنوجرافى. لقد اعتمد هادون بطبيعة الحال على المواد الإثنوجرافية التى سبق أن جمعها فى عام ١٨٨٨م، ولكن معظم التقارير الإثنوجرافية قد تم الحصول عليها صراحة من التجار والمبشرين وموظفى الحكومة[٢] أى من يد ثانوية. ولذلك فقد كان هناك مسافة لا تزال موجودة بين مضايق توريس والبحث الميدانى بالنموذج الذى سيقدمه مالينوفسكى.

أما سبنسر فقد كانت إثنوجرافيته وثيقة الصلة بالأسلوب الذى طوره هادون انطلاقاً من البحث الحيوانى. لقد حضر سبنسر محاضرات تايلور بأكسفورد، وأثناء سنواته الأولى فى مالبورن بأستراليا انشغل بتدريس البيولوجيا وبعد ذلك التحق ببعثة Horn إلى الصحراء الأسترالية المركزية فى عام ١٨٩٨م. فى ذلك الحين كان فرانك جالين F. Gallin الوصى أو الأمين الإقليمى على السكان المحليين، وسرعان ما نشأت بين سبنسر وجالين صداقة وثيقة. وحين عاد سبنسر إلى مالبورن استمرت العلاقة الإثنوجرافية بينهما. يكتب سبنسر من مالبورن الأسئلة التطورية ويرد جالين بالمادة الإثنوجرافية التى حصل عليها. وفى عام ١٨٩٦م كتب جالين لسبنسر طالباً منه الحضور لمشاهدة شعيرة الاستهلال الدورية (التى يطلق عليها Fngwara) التى يقوم بها كبار السن فى قبيلة Arunta والتى استغرقت الطقوس الشعائرية فيها ثلاثة شهور وأثناء هذه الفترة عاش سبنسر وجالين بالقرب من معسكر القبيلة يلاحظان الطقوس

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويتناقشان مع الأهالى (برطانة أو لغة قبيلة Arunta المحدودة لدى جالين)، مكتشفين فى النهاية المغزى الدينى العميق للشورينجا Churingas ولقد عبر جالين عن ندمه للمعالجة السببية السابقة التى قدمها لهذه الموضوعات المقدسة(١).

وحين انتهت الطقوس الشعائرية كان لدى كل من سبنسر وجالين ثروة من التفاصيل الإثنوجرافية حول الحياة الشعائرية الوطنية من النوع الذى لم يسبق للمنظرين الأنثروبولوجيين أن اختبروه وبدلاً من تبديد المعلومات من خلال مقولات الاستبيان Notes & Queries in Anthropology فقد قدم كتاب "القبائل الوطنية فى أستراليا الوسطى" The Native Tribes of Central Australia 1899 مادة إثنوجرافية حول الطوطمية كان لها تأثيراً كبيراً على المواد المتداولة السائدة، ولقد اقترح مالينوفسكى فى عام ١٩١٣م أن نصف النظرية الأنثروبولوجية التى كتبت منذ ذلك الحين قد قامت على هذا الكتاب، فقد تأثر جميع الأنثروبولوجيين بقوة به. فقد كان الكتاب – وفقاً لمالينوفسكى – يمارس أسلوباً إثنوجرافياً يختلف تمام الاختلاف عن الأسلوب الذى مارسه هادون، وقد اعتبره ابتكاراً إثنوجرافياً بديلاً لفريق العمل الإثنوجرافى الذى اتبعته بعثة مضايق توريس، فقد أصبح هذا الكتاب بؤرة الإلهام بالنسبة لفريزر Sir. J. Frazer، فعلى الرغم من أن فريزر لم يغادر قط برجه النظرى العاجى إلا أنه كان مشجعاً عظيماً للبحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا وكثيراً ما اعترف فريزر أن تأثيرات الباحثين الميدانيين قد فاقت بكثير تأملاته النظرية ومع ذلك فقد تعارض تمسكه بالفصل الحاد بين الإثنوجرافيا والنظرية الأنثروبولوجية (التى كان يرى أن تترك لعالم الإثنولوجيا المقارنة) مع التقاليد البازغة للعمل الميدانى(٢).

ثانياً ـ الدراسة المكثفة قبيل الحرب العالمية الأولى:

فى ذلك الحين ساد الاعتراف بهادون وزملائه بوصفهم يمثلون مدرسة كمبردج Cambridge School، وعلى الرغم من أهمية المواد الإثنوجرافية التى احتوتها

---

(1) Ibid.
(2) Ibid.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجلدات الأولى لمضايق توريس(*) فيما يتعلق بالمناقشات النظرية المتداولة فلم تكن هذه المادة الإثنوجرافية بقدر ما كانت البعثة ذاتها هى التى تمثل الرمز للمشروع الإثنوجرافى الذى أسس سمعة المجموعة. فمنذ عودته قام هادون بالدعاية المكثفة للبحث الميدانى الأنثروبولوجى (وهو مصطلح اشتق من علماء التاريخ الطبيعى الميدانيين وقد أدخله هادون إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية). وفى الخطاب الرئاسى للمعهد الأنثروبولوجى الملكى ١٩٠٤م تحدث هادون عن الحاجة الملحة للأبحاث الجديدة فى الميدان من قبل الرجال الذين تم تدريبهم بوصفهم أنثروبولوجيين ميدانيين. ولقد اقترح هادون أن يكون فريق البحث المكون من ثلاثة رجال دائماً فى الميدان. ولأنه كان عالماً للحيوان يهتم بدراسة الأقاليم البيولوجية فقد اقترح ضرورة القيام ببعثات السفن التجارية إلى ماليزيا التى يغادرها الباحثون على الجزر المختلفة ثم العودة للالتقاء بهم بعد عدة شهور. فقد كان هادون لا يزال فى ذلك الحين مهتماً بأصل وتوزيع السلالات والشعوب فى إقليم محدد وتحديد موضعها التطورى(١).

ولم يكن هادون هو الخريج الوحيد لمضايق توريس الذى أسهم فى شهرة مدرسة كمبردج فقد كانت البعثة نقطة تحول مهمة للسير المهنية لمعظم أعضاء البعثة، وفى الواقع لقد قام ريفرز وسليجمان بدور مهم فى تدريب الجيل الصاعد من الباحثين الميدانيين(**)، فعلى أثر البعثة قام ريفرز فى عام ١٩٠٢م بدراسة فى جنوبى الهند

(*) الجدير بالذكر أن المجلدات بدأت فى الظهور فى عام ١٩٠٣م وحتى عام ١٩٣٥م وقد احتفظ بها فى جامعة كمبردج كمجلدات مقدسة، وكان قد صدر منها المجلدات السادس والخامس والثالث قبل أن يبدأ مالينوفسكى بعثته إلى التروبرياند.

(1) Quiggin, A. H.; "A. C. Haddon" In International Encyclopedia of Social Sciences, 1968, vol. 6, pp. 303 - 304.

(**) فقد توفى راى Ray بعد عامين من رجوعه من مضايق توريس بسبب الدوسنتاريا التى أصابته أثناء قيامه ببحث أركيولوجى فى مصر، أما مايرز وماكدوجال فبعد أن قاما ببحث ميدانى إضافى فى مصر فقد تركا الأنثروبولوجيا إلى علم النفس، ولقد ألفا بشكل متتابع الكثير من المقدمات التمهيدية فى علم النفس الاجتماعى والتجريبى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نشرها تحت عنوان التودا The Toda، وهى تعد مثالاً نموذجياً للدراسات الميدانية المدعمة بالمراجع والأسانيد العلمية، وفى عام ١٩٠٦ و١٩١٤م على التوالى عاد ريفرز إلى ماليزيا لدراسة سكان جزر البانكس Banks Islanders ولقد نشر نتائج هذه الدراسة فى كتابين عامى ١٩١٠ و١٩١٤م الأول بعنوان "تاريخ المجتمع الماليزى" والثانى بعنوان "القرابة والتنظيم الاجتماعى"(١). وعلى الرغم من أن معظم أبحاث ريفرز كانت مما أطلق عليه فيما بعد مصطلح "المسح Survey"(*)، إلا أن المدخل الذى استخدمه لتجميع أشجار النسب أصبح فيما بعد بمثابة المدخل القياسى المناسب لدراسة القرابة والبناء الاجتماعى، فقد اعتقد ريفرز أنه يمكن التوصل - دون أية معرفة باللغة أو الاستعانة بالإخباريين - عن طريق المنهج الجينيولوجى Geneologyical Method(**) إلى أنساق القرابة المعقدة، وبقدر من الفهم لها لم

= انظر:

Stocking, G. W.: "the Ethnographer's Magic", op. cit, pp. 70 - 120.

(1) Leach, E.; "W. H. R. Rivers" In International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, vol. 14, pp. 526 - 529.

(*) المسح الاجتماعى Social Survey هو طريقة للحصول على بيانات حول موضوع معين من جمهور من الناس مثل الاستفتاءات أو الكشف عن الرأى نحو مرشحين معينين، والمسوح نوعان: مسوح شاملة Total Surveys، ومسوح بالعينة Sample Surveys، فى المسوح الشاملة يكون المجتمع أو الجماعة ككل مستهدف بغرض تصوير أو وصف الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعيشية لأفراد هذا المجتمع أو تلك الجماعة. أما المسوح بالعينة فهى تلك التى تختار عينة ممثلة لكل السكان فى الخصائص المختلفة كالسن والمستوى الاقتصادى وغيرها ويجرى عليها الدراسة للحصول على وصف ثابت ودقيق لسلوك الجمهور واتجاهاته. انظر:

Schuman, H.; "Survey Research": In Encyclopedia of Sociology, by Edgar F. Borgatta & Marie L. Borgatta, MacMillan Publishing Company, New York, vol. 4, 1992, pp. 2119 - 2127.

(**) وضع ريفرز أسس هذا المنهج وهو يعمل ضمن بعثة جامعة كمبردج عام ١٨٩٨م، وهو يقوم على أساس تتبع العلاقات بين الإخبارى وسائر المرتبطين به قرابياً، وتسجيل الباحث ما يراه مناسباً من بيانات تشمل الأسماء والأنواع وتواريخ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يستطع الأوروبيون الذين قضوا حياتهم كلها بين الشعب أن يحققوه. ولهذا السبب استخدم الأنثروبولوجيون الحكوميون هذا المنهج فى بداية القرن العشرين(١).

أما سليجمان (الذى كون فيما بعد فريق عمل مع زوجته بريندا Brenda) فقد عاد فى عام ١٩٠٣م إلى ماليزيا، قبل أن يبدأ سلسلة من الأبحاث فى السودان المصرى الإنجليزى. ففى ماليزيا قام بدراسة ثقافة الماسيم Massim وقد ظهرت هذه الدراسة فى كتاب ظهر بعنوان "الماليزيون الأصليون فى غينيا البريطانية" (١٩١٠م). وعلى الرغم من قصر الفترة الميدانية التى مكثها سليجمان فى ماليزيا إلا أن النتائج التى نشرها فى هذا الكتاب كانت مبهرة. وأهم ما يميز الكتاب هو تركيز سليجمان على المشاهدات والمعلومات الشخصية التى حصل عليها بنفسه من الإخباريين الذين قام باختيارهم بعناية، ولقد أرسى هذا الكتاب تقاليد العمل الميدانى فى الأنثروبولوجيا فى الربع الأول من القرن العشرين(٢).

وقد كان مالينوفسكى هو العضو الأخير فى مجموعة ما قبل الحرب العالمية الأولى من الباحثين الميدانيين الذين ذهبوا إلى الميدان، وقد كان رادكليف براون Radcliff Brown (١٨٨١ - ١٩٥٦م) أولهم، فبين عامى ١٩٠٦ - ١٩٠٨م قام راد كليف براون ببعثته الميدانية الأولى لدراسة الأقزام أشباه الزنجيين فى جزر الأندمان Andman Islanders بخليج البنغال تحت إشراف ريفرز، ثم قام ببعثته الثانية لدراسة سكان أستراليا الأصليين فى الفترة ما بين ١٩١٠ - ١٩١٢م(٣)، وبالنسبة لبراون فقد

= الميلاد والزواج والطلاق والوفاة والإقامة وأنواع الروابط الزواجية والعمل وغير ذلك من البيانات التى تفيد موضوع الدراسة. انظر:

فتحية محمد إبراهيم ومصطفى حمدى الشنوانى، مدخل إلى مناهج البحث فى علم الإنسان " الأنثروبولوجيا"، مرجع سابق، ص٢٠٣.

(١) هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة، مرجع سابق، ص ٥٥ - ٥٦.

(2) Fortes, M.; "C. G. Seligman" In International Encyclopedia of the Social Sciences, 1968, vol. 14, pp. 159 - 162.

(3) Hatch, E.; Theories of Man & Culture, op. cit, p. 216.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان نموذج البحث الميدانى لمضايق توريس لازال حياً فى ذهنه، ولقد قام بمعظم بحثه الأندمانى بين المرافقين لمعسكر السجن فى Fort Blaire وعلى الرغم من أن هذه الدراسة لم تسهم فى تطوير أساليب البحث الميدانى (بسبب الصعوبات التى واجهها راد كليف براون مع اللغة الأندمانية) إلا أن إعادة صياغتها فى قالب النظرية الدوركايمية – كما سنذكر فى الفصل الثانى – كانت خطوة إضافية نحو أسلوب البحث الميدانى المكثف. وفى السنوات المتبقية قبيل الحرب العالمية الأولى كان كثير من الباحثين المدربين الشبان قد غادروا الجامعات الإنجليزية إلى الميدان(١). وفى الواقع لم تتحسن التقنيات الميدانية إلا مع ظهور هذا الجيل من الباحثين المدربين(*).

وفى الواقع كان المبشرون فى ذلك الحين ممن أُتيحت لهم الخبرات العملية التى تفوق فى حجمها خبرة الأنثروبولوجيين النظريين الذين اكتفوا بصياغة أفكارهم ولم يفارقوا مكاتبهم الأوربية قط، ومع أن الخبرة العملية للمبشرين وحدها لم تكن كافية لكى تحمى كثيراً منهم من الانزلاق فى الأفكار الخاطئة حول المجتمعات البدائية إلا أن الخبرة العملية قد قادت كثيراً منهم إلى تطوير مداخل مستنيرة نسبياً لجمع المواد الإثنوجرافية. ويعد المبشر كودرينجتون النموذج البارز لمبشرى هذا العصر(٢).

إلى جانب المبشرين كان هناك جيل من الإداريين الاستعماريين أو الحكوميين ممن تمتعوا بالخبرات العملية، وبالنسبة للإداريين الاستعماريين كان تسجيل اللغات الشفاهية يمثل إحدى الضرورات اللازمة لنجاح نظم الحكم والإدارة داخل المستعمرات، ولذلك فقد كان تسجيل اللغات الشفاهية يفوق – فى نظرهم – فى أهميته تسجيل الأعراف المحلية ذاتها، ولذلك قدم توماس Thomas فى كتابه: "تقرير

---

(1) Stocking, G. W.; The Ethnographer's Magic, op. cit.

(*) كان هوكارت Hocart من أهم ممثلى هذا الجيل الجديد من الباحثين الميدانيين المدربين – فقد عمل لسنوات طويلة فى منطقة الباسفيكى باحثاً ومدرساً، وقد قدم كثيراً من التوصيات العملية لجمع المواد الإثنوجرافية ومع ذلك فقد عانت توصياته من اهتمامات العصر بالأصول التاريخية. انظر:
هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة، مرجع سابق، ص٧٥.

(٢) هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة، مرجع سابق، ص٧١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أنثروبولوجى حول الشعوب النيجيرية المتحدثة بالإيبو – ١٩١٠م" قسماً لغوياً احتوى على بعض النصائح المتعلقة بتصنيف المواد اللغوية المماثلة، بالإضافة إلى أحد الاستبيانات النحوية، ولقد ظهر هذا القسم من جديد فى كتاب ميك Meek: "دراسات قبلية فى شمالى نيجريا – ١٩٣١م"، ولقد كانت الأدلة اللغوية المحلية – بالنسبة للإداريين الحكوميين – هى أهم جانب من المواد الإثنوجرافية التى يجب جمعها، ولقد أدت الاهتمامات العملية بالمسائل اللغوية إلى تسهيل المهام الإدارية، واكتساب المعارف العملية باللغات المحلية، وأدت كذلك فى الوقت نفسه إلى إقصاء جميع الاعتبارات الإثنوجرافية الميدانية الأخرى، وقد كان راترای Rattray وتالبوت Talbot نموذجين من نماذج الإداريين الحكوميين الذين أظهروا إهتماماً متعاظماً باللغات المحلية فى المناطق التى عملوا فيها ومع ذلك لم يتطلع أحد منهما إلى أبعد من الضرورات اللغوية العملية للحكم الاستعمارى وقد أغفلت جهودهم – التى بذلت فى ضوء هذا الهدف – كثيراً مما كان عليهما الاهتمام به[١].

ثالثاً - برونيسلاف مالينوفسكى والبحث الميدانى:

قبل ظهور كتاب مالينوفسكى الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى Argonauts of the Western Pacific (١٩٢٢م) وقبل أن يتكلم مالينوفسكى فى مقدمة هذا الكتاب عن الشروط الجديدة للبحث الميدانى الأنثروبولوجى بالمعنى الحديث، خضع مالينوفسكى – خلال فترة التدريب – للأنثروبولوجيا النظرية فى مدرسة لندن لعلم الاقتصاد وذلك من خلال رسالته الأولى التى نشرها بعنوان: العائلة بين سكان أستراليا الأصليين The Family Among the Australian Aborigines (١٩١٣م)[*]، وهى بحث مكتبى نظرى أجراه تحت إشراف سليجمان ووسترمارك Westermark

---

(١) المرجع السابق، ص ٧١ – ٧٤.

(*) الجدير بالذكر أن مالينوفسكى كان قد قرأ قبل ذلك مجلدات فريزر J. Frazer "الغصن الذهبى The Golden Bough" وهى نموذج بارز للأنثروبولوجيا التأملية النظرية حيث لم يقم فريزر بأية دراسة ميدانية فى حياته.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٨٦٢ - ١٩٣٩م) للحصول على درجة الماجستير، والمهم فى هذه الرسالة أنه رفض النظر للعائلة الأسترالية فى ضوء الأحكام الظنية أو التاريخية التى سادت حتى قبيل الحرب العالمية الأولى، وشكك فى إمكانية اعتبار الأستراليين الأصليين مجرد أمثلة "حية" تشير إلى المراحل المبكرة لتطور الإنسان، أو النظر إليهم بوصفهم أجدادنا المعاصرين فقد كان للعلاقات العائلية الأسترالية - فى رأيه - مظاهرها وتصوراتها الخاصة بالأستراليين وحدهم. وعلى هذا الأساس صاغ تصوره حول "الثقافة الفريدة" وقد أصبح هذا المفهوم واحداً من المفاهيم الأساسية التى شغلت تفكيره فى جميع مراحل حياته الميدانية والأكاديمية. فقد أكد أن الحقائق الثقافية الفريدة هى وحدة الحقائق الكفيلة بإقامة البرهان الأنثروبولوجى الدقيق[١]، وفى الواقع لقد كان لدى مالينوفسكى طموحاً كبيراً لدراسة الحقائق الجوهرية للشعوب البدائية الحية دراسة علمية أمينة، وقد كان ينظر للأنثروبولوجيا بوصفها شكلاً مميزاً من أشكال الثقافة الغربية حين تتصدى لدراسة الثقافات الأخرى، وقد كان على يقين أن "الأخبار" الإثنوجرافية التى امتلأت بها النصوص الإثنولوجية لا يمكن أن تُفهم فى ضوء الأحكام الفرضية المطلقة التى أطلقها المؤرخون الإثنولوجيون وإنما يجب أن تُفهم فى سياق البيئة الثقافية الفريدة التى وجدت فيها. ولقد كانت القاعدة الرئيسية عنده تنص على ضرورة ملاحظة الوقائع الثقافية فى سياقها الثقافى الخاص[٢].

وفى عام ١٩١٣م أصبح سليجمان Seligman أستاذ كرسى الإثنولوجيا بجامعة لندن وبمساعدته حصل مالينوفسكى على منحتين للقيام بالدراسة الميدانية فى منطقة غينيا الجديدة. وقد قام مالينوفسكى بثلاث بعثات ميدانية إلى هذه المنطقة، وخلالها "عاش مالينوفسكى بين الأهالى دون انقطاع، ملاحظاً لهم أثناء عملهم ولهوهم، ومتحدثاً

(1) Frazer, Sir, J.; "Preface" to B. Malinowski: Argonauts of the Western Pacific, op. cit..
(2) Malinowski, B.; Argonauts of the Western Pacific op. cit., (the Introduction).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معهم فى لغتهم المحلية(*)، ومستخلصاً مادته الإثنوجرافية من الملاحظات الشخصية والإيضاحات الفورية التى يقدمها الوطنيون له مباشرة دون أى تدخل من المترجمين"(١)، لقد كانت الميزة الأساسية للبحث الميدانى عند مالينوفسكى تكمن (وعلى العكس من الأبحاث الميدانية التى قام بها أعضاء بعثة مضايق توريس) فى ضآلة استخدامه للإخباريين "المحترفين"، فهو لم يستعن بهم سوى لتعزيز المعرفة التى سبق له معرفتها بالفعل من الملاحظات المباشرة، فقد كانت الملاحظة المشهودية المباشرة تمثل بالنسبة لديه الأساس الشرعى الوحيد فى إقامة البرهان الإثنوجرافى(٢). فقد كان مالينوفسكى يشك فى كل أنماط المعلومات الميدانية التى لا تقوم على المشاهدة المباشرة.

وفى بعثته الميدانية الأولى التى امتدت سبعة شهور (من سبتمبر ١٩١٤ إلى مارس ١٩١٥م) قضاها بكاملها فوق جزيرة طولون استخدم مالينوفسكى شكلاً من الرطانة الإنجليزية فى اتصاله مع سكان الجزيرة. وقد استهل بعثته الميدانية (التى امتدت من يونيو وحتى مايو ١٩١٦م) فوق جزيرة كيروينا Kiriwina بإحصاء السكان وكتابة الأنساب مستعيناً فى ذلك بالرطانة الإنجليزية أيضاً ولكن تلك المادة بقيت مادة ميتة، وذلك لعجزه عن القيام بالتأويل المقبول للمصطلحات الوطنية(٣)، ولأنه كان شغوفاً بتعلم اللغات الجديدة فقد عكف على تعلم الكيرونية والانخراط فى الحياة القبلية، وبمرور الزمن استطاع تتبع بعض المحادثات التى يقوم بها الوطنيون، وشيئاً فشيئاً

(*) لقد كان مالينوفسكى يتحدث العديد من اللغات من بينها البولندية والروسية والألمانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية، ليس ذلك فحسب فقد كان يتقن اللغات الوطنية التى درسها بطلاقة لسان أهلها - انظر:

URL:Http://mnsu.edu/emuseum/information/biography/klmno/malinowski_bronislaw.html 22/10/2003.

(1) Frazer. Sir, J.; "Preface" to Argonauts of the Western Pacific, op. cit.
(2) Leach, E.; "The Epistemological Background to Malinowski's Empricism", In Man & Culture. By R. Firth, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1970, p. 120.
(3) Malinowski, B.; Argonauts of the Western Pacific, op. cit, (The Introduction).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اكتسب معرفة عميقة باللغة ولكنه لم يبدأ فى تدوين ملاحظاته باللغة المحلية إلا مع بداية زيارته الثانية لكيروينا (التى امتدت من أكتوبر ١٩١٧ حتى أكتوبر ١٩١٨م) ومنذ ذلك الحين لم يقبل اجراء الأنثروبولوجيين الاجتماعيين لبحوثهم الميدانية إلا فى اللغة الوطنية[١].

وفيما بين البعثتين الثانية والثالثة فوق جزيرة كيرونيا عاد مالينوفسكى إلى مالبورن لمراجعة المادة الإثنوجرافية الخام وتنظيمها مؤكداً قيمة الفترة الفاصلة بين نوبات العمل الميدانى، ولقد عكف مالينوفسكى خلال هذه الفترة الفاصلة على فرز مادته الإثنوجرافية وتصنيفها[٢]، وقد انتهى خلال هذه الفترة من كتابة بحثاً بعنوان: البالوما: أرواح الميت فى جزر التروبريانـد Baloma: Spirits of the Dead in Trobriand Islands نشره فى عام ١٩١٦م، وأهم ما يهمنا من هذا البحث هو مناقشة مالينوفسكى لمشكلة البحث الميدانى، وكيفية تنظيم الباحث الميدانى للمادة الثقافية، الهيولية، نتيجة انقسام آراء الوطنيين واختلاف معارفهم وتباين أنماطهم الوجدانية، حيث لم يكن هناك فى رأيه وطنيون (بالجمع) لديهم أفكارهم أو معتقداتهم الجمعية العامة كما تحت التعاليم السوسيولوجية الفرنسية، وإنما كان هناك وطنيون (بالمفرد)، لكل منهم معتقداته وأفكاره وعواطفه ودوافعه الوجدانية الخاصة. ولقد انتهى فى هذا البحث إلى أن الباحث الميدانى مجبر على استخدام حدوسه Intuations الخاصة فى ترتيب هذه المعتقدات والأفكار والدوافع الوجدانية التى تكمن خلف السلوك الاجتماعى الوطنى وتنظيمها بطريقته الشخصية. فقد ظهر واضحا فى هذا البحث أن مالينوفسكى قد عثر على أسلوبه الحميم فى العمل الميدانى[٣].

وفى يونيو ١٩١٥م غادر مالينوفسكى أستراليا إلى الميدان من جديد، وعلى الرغم من أن سليجمان قد طلب منه الذهاب إلى جزيرة روسل Rossel لدراسة ثقافة الماسيم Massim (وهى الثقافة التى سبق لسليجمان أن قام بدراستها)، ولقد بدأ مالينوفسكى

---

(1) Frazer, Sir, J.; "Preface" to Argonauts of the Western Pacific, op. cit.
(2) Ibid.
(3) Richards, A. I.; "The Concept of Culture in Malinowski's Work", In Man & Culture, ed. By R. Firth, Rotledge & Kegan Paul LTD, 1970, pp. 15 - 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رحلته فوق مقاطعة ممبار Mambare، وقرر أن يتوقف فى طريقه إلى منطقة الماسيم على جزيرة كيروينا Kiriwina بالتروبرياند حيث سبق أن عمل سليجمان هناك لفترة قصيرة لأن أهالى الجزيرة كانوا يمثلون قادة المنطقة فى الثقافة المادية والفنية وقد مر عليهم فترة منذ احتكاكهم بالأوروبيين ولكنهم لم يتكيفوا ثقافياً معهم، ولقد وصل مالينوفسكى إلى جزيرة كيروينا أثناء مهرجان الميلامالا Milamala وهو مهرجان شعائرى سنوى، فى جزر التروبرياند(*) - وعلى الخلاف من جزر مضايق توريس - لم تكن الظواهر الشعائرية فى جزر التروبرياند تسترد من ذكريات المسنين، أو يعاد تركيبها من الإخباريين، وإنما كانت هذه الظواهر من الممكن ملاحظتها مباشرة. لقد كان مالينوفسكى مفتوناً بما يشاهده، ولذلك مد فترة إقامته بالتروبرياند، وكتب معتذراً لسليجمان فى منطقة قد سبق له أن قام بتغطيتها بالفعل. وفى منتصف أكتوبر ١٩١٥م كان قد أقال مترجمه، وانتقل للداخل من المحطة الحكومية إلى قرية أوماركانا Omerakana، وقد كتب إلى سليجمان "أنه أصبح بمفرده تماماً بين الزنوج"، وهنا قرر مالينوفسكى عدم العودة إلى "ممبار" على الإطلاق، وقد مكث مالينوفسكى هناك حتى يونيو ١٩١٦م حين غادر وعاد إلى سيدنى. ومكث بسيدنى لفترة عام وثلث يدرس مادته ويضع سلسلة كاملة من الأسئلة الجديدة التى كان فى حاجة لأن يتابعها(١).

وفى أكتوبر ١٩١٧م عاد إلى جزر التروبرياند ومع أنه لم يقيم هذه المرة فى "أوماراكانا" إلا أنه أقام فى المنطقة ذاتها وقد سمح زعيم القرية له بأن ينصب خيمته فى المنطقة المركزية منها وساعده على الانطلاق إلى مناطق أخرى من الحياة

(*) جزر التروبرياند Trobriand Islands هى عدد من الجزر المرجانية، أهمها (فاكوتا) و (كيتافا) و (كيروينا) و (تيوما) و (كايليولا) تقع هذه الجزر فى الشمال من النهاية الشرقية لجزيرة غينيا الجديدة. والاسم الشائع محلياً للجزر هو (بوبووا). وهذه الجزر كانت خاضعة للإدارة الأسترالية حتى نهاية عام ١٩٧٥م حين أصبحت جزءاً من دولة (بابوا غينيا الجديدة المستقلة). انظر:
شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، ١٩٨١، ط ١، ص٩٩٠.

(1) Stocking, G. W.; "The Ethnographer's Magic", op. cit.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التروبريايندية وكل الظواهر التى شكلت موضوعات لمونوجرافاته التالية[١].

ويمكن العثور على مقومات المنهج الإثنوجرافى عند مالينوفسكى (ليس فقط بمعنى ملاحظة المادة الإثنوجرافية فى الميدان، وإنما أيضاً بمعنى تمثيلها التالى فى مونوجراف Monograph مطبوع) فى المقدمة التمهيدية التى كتبها لكتاب "الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى"، حيث كان مالينوفسكى واعياً بالهوة بين المادة الخام "العمياء" من المعلومات (أو التفاصيل البدائية للمعلومات) و "التمثيل الاستشهادى" النهائى للنتائج أو النماذج النهاية للمعرفة الإثنوجرافية، ولقد كانت المشكلة الرئيسية عنده هى كيف يُقنع القراء أن المعلومات الإثنوجرافية التى قدمت لهم فى النص كانت معرفة تم اكتسابها بطريقة موضوعية وليست أراء تم تشكيلها بطريقة ذاتية. وبوصفه عالماً طبيعيا(*) سابقاً كان الشيء الحاسم لديه هو الشرعية (أو الدقة Accuracy) والملائمة (أو الموثوقية Adequacy) فلم يكن من المقبول لديه أن يبقى الباحث الإثنوجرافى سلبياً ينتظر الإلهامات من الأفكار المتصورة سلفاً وإنما كان عليه أن يبحث بإيجابية عن المعلومات المتعلقة بالأهالى عن طريق العيش معهم وتعلم لغتهم، وذلك لأن الاتجاه العلمى يدفع الباحث الميدانى دائماً للتساؤل والتنقيح والبحث عن الحقائق الجديدة[٢]، ولذلك كتب فى مقدمة الأرجونوتس فقرتين مهمتين هما:

الفقرة الأولى:

"على الباحث الميدانى فى هذا المجال أن يترك مكانه على المقعد الوثير

---

(1) Ibid.

(*) لقد قرر مالينوفسكى التخصص فى الأنثروبولوجيا بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى فلسفة الفيزياء والرياضيات بمرتبة الشرف العليا فى عام ١٩٠٨م، وكان موضوع الرسالة: النزعة الوضعية عند ماخ L. Mach (الفيزيائى والفيلسوف النمساوى المشهور الذى كان بمثابة الأب الروحى لألبرت اينشتاين A. Einstein). انظر:

Kuklick, H.; "B. Malinowski" In Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, Routledge & Kegan Paul, London, 1996, p. 343 - 346.

(2) Malinowski, B.; Argonauts of the Western Pacific, op. cit, (the introduction).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حيث اعتاد أن يجمع ما يقوله "الرواة" ويسجل قصص البدائيين وأخبارهم وأن يذهب بنفسه إلى القرى وأن يرى كيف تعمل الشعوب فـى حـدائقها، وعلـى الشاطىء وبين الأدغال، عليه أن يبحر معهم فى قواربهم، وأن يراقبهم أثنـاء صيد الأسماك وأن يسافر معهم فى رحلاتهم التجارية الموسمية فى البحر وأن يزور قبائل غربية، يجب أن تأتيه المعلومات كاملة من خلال مراقبته الخاصة للحياة البدائية بدلاً من أن يقتصر عمله على جمع معلومات منقوصة وأخبـار قليلة ومحادثات يسيرة، إن القيام بالأبحاث الأنثروبولوجية فى الهـواء الطلـق عمل صعب ولكن فائدته غير محدودة".

والفقرة الثانية:

"على الباحث الأنثروبولوجى الذى يرغب فى تكوين صورة أمينـة عـن مجتمع السكان الأصليين أن يعيش بعيداً عن سائر البـيض الأوروبيـين وأن يقطع سائر الصلات معهم ما أمكن، وذلك لأن المعلومات التى يقدمونها عـن السكان الأصليين تنم عن ذهن غير مجرب أو غير معتاد على صياغة الأفكار بدقة، ولقد كانت آراؤهم فى الغالب (وهو يتحدث هنا عـن تجربتـه) مثقلـة بالأخطاء والأحكام المسبقة، وهم ينفرون دائما ممن يحاول معهم الوصول إلى آراء موضوعية وعلمية تتعلق بالسكان الأصليين، إن البيض الأوروبيين سواء كانوا إداريين أو مبشرين أو تجار يستخفون دائما بما يبدو أنه شىء أساسـى للباحث وما يبدو بنظره أنه يشكل كنزا علميا وبخاصة ما يتعلـق باسـتقلالية المميزات العقلية والثقافية للسكان الأصليين وخصوصيتها، ولذلك فـإن علـى الباحث أن يعيش مع السكان الأصليين وفى قلب موطنهم، وبذلك يستطيع إزالة صفة "الأوروبى" عن نفسه ويكون وجهة نظر موضوعية، وجهة نظر من يرى ولا يُرى حيث يراه معظم السكان الأصليين بينهم طول الوقت، ولكن وجوده لا يقلقهم، لأنه ليس عنصراً مخلاً بالحياة البدائية التى يتولى دراستها"[1].

(1) Kaberry, Ph.; "Malinowski's Contribution to Field Work Methods and Writing of Ethnography" In Man & Culture, ed. By R. Firth, Routledge & Kegan Paul, London, 1970, pp. 71 - 91.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد حدد مالينوفسكى ثلاثة مداخل رئيسية يمكنها أن تساعد الباحث الميدانى فى الإمساك بوجهة النظر الداخلية أو الوطنية للشعب الخاضع للدراسة، وتلك المداخل هى:

- وصف العرف الاجتماعى.
- إضافة الأمثلة المأخوذة من الحياة اليومية.
- توضيح وجهات نظر الأهالى بتسجيل ما يقولونه وعرضه.

المدخل الأول: يهتم بالكشف عن البناء الهيكلى (الأساسى) لأعراف المجتمع وانتظاماته، وهو هدف لن يتأتى سوى بمعاينة الباحث أو مسحه لكل الظواهر الاجتماعية ولكل مظهر من مظاهر الثقافة وأقرانها فى كل متماسك، ولأن الناس لا تصيغ بالضرورة الأعراف بطريقة صريحة، وذلك لأن صياغتهم لها تتم (مثلما تتم فى أية ثقافة) بطريقة غير واعية، ولكى يقوم الباحث بصياغة عرف الأهالى عليه ملاحظة الأحداث والتحدث عنها مع الأهالى، واستنباط الروايات حول الأحداث المماثلة، وهكذا يطور الباحث بياناً أو كتالوجاً Catalogue لمختلف صنوف الأحداث وكيفية استجابة الأهالى لها، وسوف يكتشف الباحث القطع المفقودة من تلك الأحجبة الثقافية حين يحاول وضع التأويلات معاً فى كل متماسك. وكما أشار مالينوفسكى: "يجب على الباحث تدوين مجموعة عريضة من المادة وجدولتها، مستخدماً الخرائط الإيضاحية، أشجار النسب، الإحصاءات السكانية، أنماط الملكية، الموارد الأخرى للمادة"، ولقد أطلق مالينوفسكى على هذا المدخل: منهج التوثيق الإحصائى بواسطة الأدلة العينية المجسدة.

المدخل الثانى: ويتعلق بتقديم أمثلة من الحياة اليومية لأن المدخل الأول يصور أو يعالج البناء الهيكلى (الأساسى) للعرف أو الدستور العرفى للمجتمع ولا يصور النبضات الحية للحياة الفعلية فيه، لأن الحياة الفعلية فى أى مجتمع لا تتبع بشكل صارم قواعد Rules الدستور العرفى، ومن ثم فإن المعالجة أو التفسير الهيكلى (الأساسى) يجب أن يكتسى بأمثلة حية من الحياة اليومية حتى تدب الحياة فيه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما المدخل الثالث: فيتعلق بتسجيل السلوك المتواتر المألوف منه وغير المألوف، ولأن الباحث لا يمكن بمقدوره استنباط أمثلة هذا السلوك (التى أطلق عليه مالينوفسكى اللاموزون من الحياة الفعلية) بسؤال الأهالى مباشرة، وذلك لأن الأسئلة المطروحة قد تعكس وجهة نظر الباحث فى الحياة وليس وجهة نظر الأهالى فقد نصح مالينوفسكى الباحث بالتحقق من وجهات نظر الأهالى وآرائهم فيما يقومون أو يقوم الآخرون به وأن يستشهد بالإفادات الحرفية التى يقدمها الأهالى ومقابلتها فيما بينها بغاية اكتشاف طرق التفكير والتأويل والإحساس التى تضفى المعنى على الحياة[١].

رابعاً ـ نظرية السياق : عرض وتحليل

يمكن تعريف السياق بأنه: "المسرح الذى يدور فيه الكلام، وهو ليس مجرد مكان يُلقى فيه الكلام، وإنما هو إطار إجتماعى ذو عناصر متكاملة، يضم المتكلم والسامع، أو السامعين، والظروف، والعلاقات الاجتماعية، والأحداث الواردة فى الماضى والحاضر ثم التراث والعادات والتقاليد، والمعتقدات"[٢]. إنه الموقف الحى بمن فيه، وما فيه، وما يكتنفه من الأشياء والموضوعات المختلفة التى قد تفيد فى فهم معنى الكلام، والوقوف على خواصه، وهناك الكلام نفسه الذى لا يمثل فى الحقيقة إلا عنصراً واحداً من عناصر المسرح اللغوى بأكمله، ولا يتم فهم هذا الكلام معزولاً عن هذا الإطار العام بكل ما فيه من دقائق: حركات الأشخاص، وسلوكهم، وما يصحب الكلام أو يتبعه من حركات الجسم، وإشاراته، وإيماءاته، وبدون فهم ذلك كله: يصبح الكلام شيئاً مشوهاً، ومجرد أمثلة مجردة من الارتباط بسياقها وبالموقف الذى جاءت

(١) محمود حمدى عبد الغنى، قياس المفاهيم النظرية والمنهجية فى العلوم الاجتماعية، مؤسسة حورس الدولية، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص ١٨١ - ١٨٣.

(٢) محمود السعران، علم اللغة (مقدمة للقارىء العربى)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص٣٣٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فيه. "والسياق"، أو المسرح اللغوى المعنىّ فى هذا كله: خاص بالكلام المنطوق(*)(١).

وبذلك فإن سياق الحال يشتمل على مجموعة من العناصر أهمها:

١. الكلام الفعلى أو الحدث الكلامى نفسه.

٢. شخصية المتكلم والسامع، وتكوينهما الثقافى وحالتهما النفسية وشخصية من يشهد هذا الموقف أو الذين لهم علاقة بهذا الحدث، ومدى علاقتهم بهذا الموقف من حيث المشاركة أو مجرد الحضور.

٣. الأشياء والموضوعات المتصلة بالكلام.

٤. الظروف المحيطة بالكلام كالبيئة، والزمن والأحداث المعاصرة له سواء كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية، ودرجة هذه العلاقة بالحدث.

(*) اللغة المنطوقة The Spoken Language.

اللغة المنطوقة أقدم - أو أكثر جوهرية - من اللغة المكتوبة وذلك بسبب:

أ. أن الجنس الإنسانى استخدم الكلام زمناً طويلاً قبل أن يعرف الكتابة، ولا تزال هناك لغات ليس لها شكل كتابى.

ب. أن الطفل يتعلم الكلام زمناً طويلاً قبل أن يتعلم الكتابة.

ج. أن اللغة المكتوبة يمكن - على نطاق واسع - أن تتحول إلى كلام دون أن تفقد شيئاً. أما العكس فغير صحيح، إذ أننا لو كتبنا ما قيل لفقدنا الكثير.

د. أن الكلام يلعب دوراً أكبر - فى حياتنا - من الكتابة. فنحن نمضى فى الكلام وقتاً أكثر بكثير مما نمضيه فى الكتابة أو القراءة.

انظر: Palmer, F. R.; Semantics: A New Outline, Cambridge University Press, England, 1977, p. 2.

(١) محمد فؤاد أحمد على الدين، مشكلة المعنى بين النحو والبلاغة، رسالة دكتوراه، إشراف كمال محمد بشر وعبد الرحمن محمد السيد، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة، ١٩٨٦، ص١٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٥. أثر الكلام على المشاركين فيه، كالانفعال أو الخوف أو الرضا أو الضحك أو البكاء[١].

إذن يشير مصطلح السياق إلى الموقف أو المظاهر الخاصة بالعالم الخارجي التى تضيف المعنى على النص أو المنطوق، فهو لا يشير إلى السياق اللغوى، أو إلى الكلام فحسب على الرغم من أهميته وإنما يشير أيضاً إلى البيئة الاجتماعية.

وفى الحقيقة فلكى يفهم مالينوفسكى المعنى(*) لم يبدأ من التعبير اللغوى وإنما بدأ من الموقف الخارجى. لقد أشار مالينوفسكى إلى أن الأفكار المجردة القليلة التى يمتلكها الوطنيون تحمل شرحها الملموس فى الكلمات نفسها التى تعبر عنها. فالكلمة والعلاقة بالواقع الحياتى يجعلان الفكرة المجردة مفهومة بما فيه الكفاية.

ولذلك لم يهتم بالتعريف التجريدى للمعنى، لأن هذا التعريف يعبر عن وجهة نظر "قاتلة" للعمل الميدانى "كفء لأنه سيجعل المراقب (الملاحظ الميدانى) يكتفى بمجرد تدوين النصوص واستهلاك الطبيعة الذهنية للكلمات، هذا مع أن الوجه الوظيفى والثقافى البرجماتى للكلمات لا يظهر مفعوله إلا من خلال تجسيدها وعلاقتها السياقية كما يستخدمها الوطنيون.

لقد أكد مالينوفسكى على ضرورة فهم النصوص اللغوية البدائية المثبتة فى الأغانى والأناشيد والأساطير والخرافات فى ضوء السياق الاجتماعى الخاص. وبذلك فقد كان يطالب بطريقة جديدة فى جمع الأدلة فيما يخص العمل الحقلى الأنثروبولوجى. ولكى يوضح مالينوفسكى هذه الطريقة الجديدة فى جمع الأدلة

---

(١) كمال محمد بشر، قضايا لغوية، دار الطباعة القومية (النجاح سابقاً)، القاهرة، ١٩٦٢، ص٤٦.

(*) الجدير بالذكر أن المعنى قد عولج أساساً فى التحليل اللغوى والنظرية اللغوية فى بريطانيا العظمى بالاعتماد على الفهم العام لنظرية سياق الحال.

انظر:

Robins, R. H.; General Linguistics: An Introductory Survey, Longmans Green & Co LTD, London, 1968, p. 26..

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإثنوجرافية قدم لنا ثلاثة نماذج لكيفية حصول الباحث الميدانى على المعلومات الطازجة الحية عن طريق ملاحظة الحياة الوطنية فى ضوء فكرة التبعية للسياق، النموذج الأول وهو كيفية ملاحظة اللغة المتداولة فى أحد النشاطات العملية الممارسة، النموذج الثانى وهو كيفية ملاحظة السرد الروائى للحكايات، والنموذج الثالث وهو كيفية ملاحظة الثرثرة الاجتماعية.

النموذج الأول:

يمضى مالينوفسكى فى عرض نظريته قائلاً أنه يرفض رفضاً باتاً اعتبار اللغة مجرد وسيلة لنقل الأفكار من رأس المتكلم إلى رأس السامع. إن اللغة عنده مرتبطة بالعمل فهى تنقل فكرة تدعو إلى العمل سواء أكان عمل فرد أم عمل جماعة.

حيث يقول:

"من المهم أن نؤكد أن وظيفة اللغة بوصفها مفتاحا للعملية العقلية هى أمر ليس من السهل الإحاطة به، فعلى الرغم من أهمية الدراسة التفصيلية لقضية العلاقة بين الفكرة والكلمة، وبين الإفادة اللفظية والموقف الذهنى، إلا أنه ليس هناك ما هو أخطر من تصور اللغة بوصفها عملية تجرى موازية للعملية العقلية، أو أنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بها، أو الاعتقاد فى أن وظيفة اللغة هى أن تعكس العالم العقلى للإنسان، أو استخراج النسخة المطابقة لهذا العالم العقلى بواسطة تدفق المكافئات اللفظية. فالوظيفة الرئيسية للغة ليس التعبير عن الفكر، وليس مطابقة العمليات العقلية كذلك، وإنما هى فى الحقيقة أداء دور عملى فعال فى السلوك الانسانى"[1].

وكتب أيضاً يقول:

"كى نتناول مجموعة النصوص الشفهية المتبادلة بين جماعة من الوطنيين المنهمكين فى أحد النشاطات الخاصة بالبحث عن موارد الرزق (مثل القنص أو فلاحة التربة أو الزراعة أو صيد الأسماك)، أو المنهمكين فى أحد

(1) URL: Bronislaw Malinowski
Http://socrates.berkeley.edu/~anth3/bronislaw malinowski.htm
24/06/2004.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المناسبات الجماعية الخاصة (النشاط الحربى، الأداءات الشعائرية، العروض الفنية كالرقص والغناء أو اللعب) من المهم أن نتعرف على مجموعة المشاركين فى مثل هذه المشاهد الكلامية قبل أن نتورط فى تحليل النصوص الشفهية ذاتها، فالغالب بين التروبرياندبين أن تجتمع أية مجموعة مشتركة فى أداء أى نشاط معين حول هدف واحد محدد، وأن تقوم هذه المجموعة بالأعمال بطريقة تكاملية، وأن تظهر أفعالهم المقصودة المتكاملة وفق القواعد العامة التى أرستها الأعراف القبلية السائدة، وأن يتم تبادل الكلام الشفهى بينهم لإنجاز هذه الأعمال المتكاملة فالكلام هو الوسيلة المهمة لتحقيق الأعمال المتكاملة، والكلام هو الوسيلة المهمة لتحقيق الألفة الآنية، وتأكيد الروابط المتبادلة"(١).

ولكى يشرح مالينوفسكى هذه الفكرة يقدم لنا وصفاً لإحدى رحلات الصيد التى يقوم بها سكان جزر التروبرياند، ويعرض للكيفية التى تتكامل بها اللغة المستخدمة بين المشاركين وسلوكهم الفعلى أثناء رحلة الصيد، وللكيفية التى تحقق بها تلك اللغة التعاون بينهم، والمصطلحات التقنية التى تمتلىء بها.

يقول:

"بدون إحداث أى ضجيج تتقدم القوارب Canoes ببطء شديد فى إحدى البحيرات المرجانية الضحلة، يُسيرها بالمجاديف رجال خبراء يقومون دائماً بهذه المهمة، معهم خبراء آخرون على معرفة وثيقة بقاع البحيرة المرجانية وحياتها النباتية والحيوانية، وهم منتبهون تماماً لتجمعات الأسماك ومترقبين لها. فيصادف أحدهم الفريسة، عندئذ يتوقف الأسطول وينظم ذاته حيث تؤدى القوارب كلها وكل الرجال فوقها عملهم المحدد وفقاً للروتين المعتاد المتعارف عليه وينطق الرجال أثناء آدائهم لأعمالهم أصواتاً قد تعبر عن الفطنة Keenness فى المهنة، أو عن صبرهم على العقبات الفنية التى تصادفهم، أو عن بهجة الانتصار أو عن خيبة الإخفاق، وقد ينطق أحدهم أحد التعبيرات الفنية التى تشير للأعماق أو عن خدعة الإيقاع بالأسماك وتنطلق كلمات قائد الأسطول مدوية، وهى تعبيرات فنية لا مهمة لها إلا التوفيق بين سلوكه

(1) Malinowski, B.; The Problem of Meaning in Primitive Languages, Supplement to the Meaning of Meaning, op. cit., p. 310.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وسلوك الرجال. يطرح البعض من فوق القوارب الشباك فى الماء على نطاق واسع، ويغطس البعض فى مياه البحيرة الضحلة، ليقودوا الأسماك نحو الشباك المنصوبة وينتظر البعض الآخر وهم ممسكون بشباكهم الصغيرة على أتم الأستعداد للحاق بالأسماك الهاربة. مشهد حيوى ملىء بالحركة المتدفقة، بعد ذلك يبدأ الصيادون فى الحديث لينفسوا عن أحاسيسهم ويتبادلون التعبيرات التى ألفوها خلال خبرة العمل الطويلة وهى تعبيرات لا يمكن ترجمتها دون تقديم وصف دقيق للأدوات الفنية المستخدمة ودون تقديم وصف دقيق أيضاً لنماذج الفعل الممارسة"(١).

كانت التعبيرات الوطنية المستخدمة فى حرفة الصيد بين التروبرياندديين كما صورها مالينوفسكى ترتبط وبشكل أساسى بسياق الحال وبهدف الحرفة ذاتها مثل (تحركات الفريسة، أو مواجهة الصيادين للبيئات المتغيرة، أو بالحماس العنيد لدى الصيادين، أو بكلمات قائد الأسطول)، فقد إمتزجت التعبيرات الوطنية المتبادلة بالنشاط العملى الممارس واعتمدت عليه، ولم يكن المشاركون فى هذه الحرفة قد اكتسبوا معانى التعبيرات المستخدمة عن طريق التفكر أو التأمل فيها، وإنما عن طريق المشاركة الشخصية فى العمل أو ممارسة الحرفة ذاتها. فقد اعتمد معنى كل تعبير فى كل حرفة على إحدى الخبرات العملية، وعلى الموقف الخاطف الذى ينطق فيه.

وبذلك أصر مالينوفسكى على أن التروبرياندديين لا يستخدمون لغتهم بوصفها مرآة للتفكير أو بوصفها أداة من أدوات الفكر، وإنما يستخدمها بوصفها حلقة من حلقات النشاط العملى الممارس، وبوصفها نموذجاً من نماذج الفعل المتحقق(٢).

يقول مالينوفسكى:

"إذا رغبت فى إعادة تقرير هذه الفكرة فإننى يمكن أن أقول بأن للغة -

---

(1) Ibid, p. 311.
(2) Ibid, p. 311 - 312.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فى ضوء وظيفتها البدائية وشكلها الأصلى - سمة برجماتيـة(*) Pragmatic جوهرية، بمعنى أنها نموذج من نماذج السلوك وأحد العناصر الأساسية فى إنجاز الأفعال الإنسانية التكاملية"(١).

فحين يتعلم البدائى فهم معنى إحدى الكلمات فإنه لا يتعلمه عن طريق التعليلات، أو عن طريق الوعى الذاتى الاستبطانى(**) وإنما يتعلمه بتعلم كيفية القبض على الكلمة ذاتها واستعمالها. فالكلمة لدى الإنسان البدائى ليست سوى الاستخدام العملى الشائع الذى ترتبط به، بالضبط مثلما لا تعنى الآلة شيئاً لمن يستعملها إلا حين يقوم بالإمساك بها واستعمالها، وهكذا فالكلمة لا تعنى للإنسان البدائى شيئاً إلا حين تكون له خبرة عملية فى متناول يده بهذه الكلمة، وتلك قاعدة أساسية، والأكثر من ذلك أن إدراك معانى الكلمات لا يتم إلا بالمشاركة العملية الفعلية فى طريقة أداء الأفعال، ومن ثم لا يستخدم البدائى الكلمة إلا حين يكون بمقدورها إنتاج فعل وليس حين تصفه، فالكلمة هى قوة فى ذاتها، وهى وسيلة لإنجاز الأفعال وجذبها، ولذلك تستخدم الكلمات كبديل صريح للأفعال، ولا تستخدم لتعريفها(٢).

ويعادل مالينوفسكى بين استخدام الإنسان البدائى للكلمات وما يستخدمه الأميون فى أى مجتمع متمدن حيث يقول:

(*) برجماتية Pragmatism من اللفظ اليونانى Pragma أى العمل، فهى الفلسفة العملية، وتجعل من العمل مبدأ مطلق ومن أعلامها بيرس ووليم جيمس، انظر:
Wilson, D.; "Pragmatism": In The Social Science Encyclopidia; Routledge, London, 1996, pp. 661 - 662..

(1) Ibid, p. 316.

(**) الاستبطان Introspection: طريقة ذاتية فى فهم وتفسير الأحداث أو الظواهر، كانت تمثل المنهج السائد حتى منتصف القرن التاسع عشر حيث كان الفرد يتأمل ما يجرى داخل نفسه من عمليات شعورية، فهذا المنهج يعتمد على دراسة المرء مشاعره وذاته وتأمل ما يدور فيهما من عمليات. انظر:
Term, R. C. Adam.; "Introspection", In Encyclopedia of Psychology, Edited by Corsini & Raymond. J., John Wiley & Sons, New York, Second Edition, vol. 2, 1994, pp. 287 - 288.

(2) Ibid, pp. 321 - 322.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"من المعروف أن الأميين فى أى مجتمع من المجتمعات المتمدنة يعاملون الكلمات وينظرون إليها كما يفعل البدائيون تماماً، ذلك لأن اللغة ارتبطت عندهم بقوة بعالم الفعل. فالأسلوب الذى يأخذ الأميون به المعرفة اللفظية (كالأمثال والأقوال المأثورة وحاليا الأخبار) وينظرون به إليها بوصفها الشكل الوحيد للحكمة يمثل فى الواقع إحدى السمات البارزة التى تميز اتجاههم العملى نحو اللغة"(١).

ويقول أيضاً:

"لقد ارتبطت مختلف ضمائر الملكية فى ماليزيا(*)، وبعض التقييدات النحوية للفعل والاسم بشكل عميق بالممارسة التى وضعت اللغة فيها مختلف مصادر معلوماتها الثقافية، وفصل دراسة اللغة عن دراسة الثقافة لا يعنى بالتحديد سوى تضييعاً للوقت وعدم الخبرة بالمظاهر الغالبة للبحث"(٢).

وفى الحقيقة لم يكن التزام مالينوفسكى وجهة النظر البرجماتية لدى الإنسان البدائى، ولم تكن نظرته للغة بوصفها نموذجاً من الفعل وليس بوصفها علامة مقابلة للفكر سوى نتاجاً لملاحظته لمظاهر اللغة الوثيقة الصلة بسياقات الموقف (أثناء التجارة، صيد السمك، زراعة الحدائق، الحرف المماثلة)، فقد اختار ملاحظة الدلالات المباشرة لهذه النشاطات، والإسنادات إلى البيئة، وكلمات الصيد، والكلمات الموازية لأداء الأفعال وكل التعبيرات العاطفية المرتبطة بالسلوك. وتلك هى السمة الأساسية

---

(1) Ibid, p. 322.

(*) فى لهجة البوان Bouan وهى إحدى لهجات اللغة الفيجية Fijian يمكن استخدام التعبيرات التالية كإيضاحات:

قاربه:	na nona waqu
الشاى الخاص به:	na mena ti
قدميه:	na yava - na
قهوته:	na mena yaqona
ثمار اليام الخاص به:	na kena uvi.

(2) Firth, J. R.; Ethnographic Analysis of Language, op. cit., p. 117.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المميزة لحقائق اللغة كما قدمها مالينفوسكى فى كل أعماله الإثنوجرافية[١].

وهكذا أكد مالينوفسكى كعالم لغة يتمتع بذكاء حاد أن جوهر الكلمة المنطوقة يعتمد برمته على السياق الذى تلفظ فيه، ويتوقف معنى الكلمات على ما تنجزه من الفعل العينى المجسد[٢].

النموذج الثانى:

القرينة السياقية للحكاية[٣].

قدم مالينوفسكى فى مقال الأسطورة فى علم النفس البدائى Myth in Primitive Psychology تحليلاً سياقيا للأسطورة ليؤكد قيمة المنظور الأنثروبولوجى فى تفسير المعنى الاجتماعى المتحقق للأسطورة والحكاية، فالأسطورة لم تكن فى الواقع البدائى مجرد حكاية تُحكى وإنما كانت واقعاً معاشاً، ولم يكن لها طبيعة الخيال التى قد نقرأه فى إحدى الروايات وإنما كانت واقعاً حياً. لقد رفض مالينوفسكى فحص الأسطورة فى ضوء النصوص الرمزية لأنها كانت فى المجتمع البدائى تعبر مباشرة عن مادتها الذاتية. وكانت الأسطورة تُروى من أجل إشباع حاجات دينية وأخلاقية عميقة، بل وتعبر عن احتياجات اجتماعية وعملية. لقد رأى مالينوفسكى أن فهم الأسطورة لا يمكن أن يتحقق سوى بدراسة صانع الأسطورة البدائى نفسه وتعليقات المؤمنين الحقيقيين بها.

ولكى يؤكد مالينوفسكى هذا التأويل السياقى للأسطورة اهتم بدراسة الحكاية Narrative، وفى هذا المجال لم يهتم بدراسة النصوص المروية فحسب وإنما ركز أيضاً على صلتها الاجتماعية. وذلك لأن النص بدون السياق المصاحب يبقى متناً. لقد

---

(1) Ibid, p. 104.

(2) Leach, E.; The Epistemological Background to Malinowski's Empricism, op. cii, p. 131.

(٣) برونيسلاف مالينوفسكى، السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية ومقالات أخرى، ترجمة فيليب عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥، صفحات ١٠٨ وما بعدها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بدأ مالينوفسكى بتحليل السياق الاجتماعي للحكاية بتذكيرنا أن هناك موسماً تحكى فيه الحكايات (وهو أواخر نوفمبر حيث يسود الطقس المطير وحيث لا يوجد سوى القليل لعمله فى الحدائق، ولم يحن موسم الصيد فى إيقاعه الكامل بعد) وعادة ما تحكى الحكايات أو يطلب من بعض الأشخاص قص حكاية، ويشير مالينوفسكى أن كل قصة مملوكة لعضو فى المجتمع، وأن كل قصة يجب أن تُتلى بواسطة المالك هذا مع أنها معروفة من الكثيرين، ومع ذلك فقد يقدمها هذا المالك كهدية لشخص آخر سواء بتلقينها أو بالتصريح له بروايتها. لكن ليس كل ملاك القصص يعرفون كيف يلهبون المشاعر ويشيعون جوا من المؤانسة أو يثيرون الضحك من القلب، وهو إحدى الغايات الرئيسية لقص الحكايات. ويجب على الراوى أن يغير طبقات صوته أثناء الحوار، وأن يغنى الأغنيات القصيرة، وأن يمارس الإيماء. وأن يقوم بتمثيل الحكاية لجمهور الحاضرين. حيث أن الطبيعة الشاملة للأداء، الصوت والمحاكاة والإثارة والاستجابة لدى جمهور المستمعين، كل ذلك يعنى الكثير بقدر النص. فالحكايات تعيش فى حياة الوطنيين وليس على الورق. وليس من الجلى أن نفهم الحكاية فهماً كاملاً بفهم معنى النص فقط، وإنما يجب فهم الطبيعة الاجتماعية للقصة، أو مواقف الوطنيين تجاهها واهتمامهم بها.

النموذج الثالث:

سياق الحال الخاص بـ: الثرثرة الاجتماعية (المشاركة الكلامية)

لقد أوضح مالينوفسكى أنه حين تستخدم اللغة فى الخطاب الحر أو الثرثرة عديمة الهدف، فهى تستخدم فى العادة وفق اعتبارات خاصة، للتعبير عن اللطف أو المجاملة أو التحية، فالاستفسار عن الصحة، أو التعليق على أحوال الطقس، أو الحكم على أحوال الموضوعات العامة لا تستخدم فى العادة بهدف إقامة الروابط الوجدانية بين المتحدثين، وإنما تستخدم للمجاملة والحرص على الاقتراب من الآخرين[1].

والواقع أن استخدام الكلام فى التعبير عن حب الاقتراب من الآخرين، يؤدى إلى إبراز مظهر مهم من الحقيقة الاجتماعية للإنسان فى المجتمع، ففى كل المجتمعات ميل

(1) Malinowski, B.; The Problem of Meaning, op. cit., p. 313.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

معروف بين الأشخاص للتواجد معاً، ويتمتع كل منهم برفقة الآخرين، فالميول الفطرية عند الإنسان تجعل من مجرد الظهور مع الآخرين وصحبتهم شيئاً مهماً عند الإنسان، وبالنسبة للإنسان (فى أى مجتمع من المجتمعات) يعد الكلام المضايف الحميم لهذا الميل الفطرى لصحبة الآخرين... بل الأكثر من ذلك أن الصمت أو قلة الكلام فى صحبة الآخرين ليس عاملاً مطمئناً على الإطلاق، بل يعد شيئاً مريباً ويثير سوء الظن والشكوك، وتلك حقيقة وقانون عام، فكسر الصمت والمشاركة فى الكلام هو العمل الأول لإقامة حلقة من حلقات الصداقة والألفة، ولا يتفوق على ذلك إلا كسرة خبز أو المشاركة فى الطعام[١].

وبرغم أن الثرثرة بالكلام فى المجتمع المالينيزى تختلف قليلاً عن مثيلاتها فى المجتمعات الأوروبية إلا أنها تشترك فى التأكيد عليها والموافقة على القيام والإشتراك فيها، حتى أن الغريب الذى لا يستطيع التحدث مع رجال القبائل هناك، أو يمتنع عن ذلك يعد بالنسبة لهم عدواً، وقد تخلق عدم موافقة الشخص (المالينيزى) على المشاركة الكلامية روابط الكراهية، ولذلك يقدم الأشخاص هناك لبعضهم بعضا قليلاً من التنازلات الشخصية حين يثرثرون، فتجدهم ينصتون لبعضهم بعضاً بكثير من الصبر والتحفظ، وكثيراً ما ينتظرون حتى تأتى أدوارهم فى الكلام، وعلى أية حال فالروابط التى تخلقها الثرثرة ليست روابط متماثلة عند كل المتحدثين، ولكنها كقانون عام تؤدى الثرثرة عادة إلى المشاركة فى البهجة الاجتماعية والتعزيز الاجتماعى للمتحدث، ورغم الإنصات الذى يعطى للأحاديث فلابد أن يتم تبادل الأدوار فيما بينهم[٢].

هذا النمط من استخدام اللغة أطلق عليه مالينوفسكى اسم المعايشة الكلامية Phatic Communion وهو نمط من الكلام تتخلق فيه روابط الصلات الوثيقة بمجرد تبادل (وبطريقة حرة) مجموعة من العبارات والكلمات، فهو نمط لا يستخدم أساساً لنقل المعانى الخاصة بتلك العبارات والكلمات فالوظيفة الوحيدة التى يؤديها هى وظيفة اجتماعية بحتة، فتلك الكلمات ليست نتاجا لفعل التأمل العقلى ولا تثير حتى مثل هذا التأمل لدى المستمع، وعلى ذلك لا يمكن أن يقال حسب مالينوفسكى أن اللغة تستخدم

(1) Ibid, p. 314.
(2) Ibid, p. 314.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هنا لنقل الفكر، أو التعبير عنه[١].

هذه (المعايشة الكلامية) الصرفة التى ليس لها من هدف لنقل الأفكار تضع الرجل البدائى والرجل المتمدن على قدم المساواة فى جو من الخطاب الاجتماعى البهيج، فاللغة التى نستخدمها أثناء اختلاطنا بالآخرين والثرثرة معهم مشابهة للغة البدائيين[٢].

حين يجلس عدد من الأشخاص أمام النار فى القرية يثرثرون، أو حين ينهمكون (أثناء قيامهم بإنجاز أحد الأعمال اليدوية) فى القيل والقال، تلك الأقوال لا ترتبط على العموم بما يقومون به من أعمال، من الواضح أننا ننتقل هنا إلى نموذج آخر من نماذج استخدام اللغة، والواضح هنا أن الكلام الشفهى المتبادل لا يعتمد على ما يحدث فى اللحظة، فالكلام المحكى قد جُرد من أى سياق له، ولم ترتبط معانيه بالسلوك الفعلى للمتحدثين أو بأى هدف من الأهداف الآنية للأعمال التى يقومون بها[٣].

والسؤال المهم الذى يطرحه مالينوفسكى هو: بأى حال يمكن التسليم بأن اللغة هنا نموذج من نماذج الفعل، وما علاقة هذا الاستخدام بتصور سياق الحال؟

ويجيب مالينوفسكى:

> "يتكون الموقف أو السياق من هذا الجو العام فقط، ومن الرغبة الفطرية فى النزوع إلى الآخرين، ومن المعايشة الشخصية (الآنية) لهؤلاء الأشخاص، فالموقف ذاته يتكون من الكلام، ويخلق من تبادل الكلمات، ومن المشاعر التى تشكل التجمع الاجتماعى البهيج، ومن تبادل المنطوقات التى تؤلف الثرثرة العادية فالموقف الكلى هنا يتكون مما يحدث لغويا، وكل منطوق يقوم بخدمة الهدف المباشر من الثرثرة، وهو إقامة الرباط العاطفى الاجتماعى، وهكذا تظهر اللغة لنا ليس بوصفها إحدى أدوات التأمل العقلى، وإنما بوصفها أحد نماذج الفعل"[٤].

---

(1) Ibid, p. 315.
(2) Ibid, p. 316.
(3) Ibid, p. 313.
(4) Ibid, p. 315.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وهكذا، فقد كانت الأفكار التى قدمها مالينوفسكى لتفسير معانى التعبيرات اللغوية للتروبرياندیين Paroles – بوصفها نموذجا من الفعل الخاضع للملاحظة، وليس بوصفها المقابل الصوتى للفكر وتسليمه بأسبقية الكلام المقترن بالأفعال على اللغة Langue(*)، والضوابط الإثنوجرافية التى وضعها لتمثيل الحقائق اللغوية – نتائج خلاقة فى علم اللغة الوصفى البريطانى وفى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية على حد سواء، وعلى الرغم من التقدير الكامل الذى أبداه جون روبرت فيرث J. R. Firth (١٨٩٠ – ١٩٦٠م) (أول أستاذ لعلم اللغة فى بريطانيا) لنظرية السياق(**) فإن مالينوفسكى لم يكن عالما لغويا وإنما كان باحثا أنثروبولوجيا ميدانيا صادف كثيراً من الصعوبات فى "الترجمة"(١).

(*) ظهر كتاب دوسوسير "دروس فى علم اللغة العام"، عام ١٩١٦ بينما كان مالينوفسكى فى جزر التروبرياند، وعلى الرغم من تركيزه – على الخلاف من دوسوسير – على الكلام Parole فإنه لم يشر طوال حياته الأكاديمية إلى التفرقة التى قدمها دوسوسير بين اللغة Langue (ويعنى بها اللغة الجمعية لمجتمع ما) والكلام Parole (ويعنى بها كلام فرد محدد بالذات). انظر:
جوناثان كللر، فرديناند دوسوسير "تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات"، ترجمة محمود حمدى عبد الغنى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٤٣ وما بعدها.

(**) لقد عد فيرث الملحق الذى تضمن نظرية السياق الذى نشره مالينوفسكى فى كتاب أوجدن وريتشاردز "معنى المعنى" بعنوان "مشكلة المعنى فى اللغات البدائية" صاحب التأثير الأكبر على النظرية اللغوية مقارنة بالكتاب الأصلى "معنى المعنى".

(1) Firth, J. R.; Ethnographic Analysis of Language with Reference Malinowski's Views, op. cit, p. 94.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثانى

الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى وعلاقتها بنظرية السياق

- تمهيد.

أولاً: إميل دوركايم والتحليل الوظيفى السوسيولوجى.

أ ـ استقلال الحقائق الاجتماعية.

ب ـ الصفة الخارجية للحقائق الاجتماعية.

جـ ـ طبيعة المنهج السوسيولوجى.

ثانياً: الوظيفية السوسيولوجية عند راد كليف براون.

ثالثاً: الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تمهيد:

لقد كان الهدف الأساسى من عرض الباحث لنظرية السياق فى الفصل الأول هو بيان القيمة المنهجية لهذه النظرية فى جمع المعلومات الإثنوجرافية بالاعتماد على الملاحظة بالمشاركة Participant Observation(*)، فقد كانت الملاحظة الميدانية الشهودية تمثل - بالنسبة لمالينوفسكى - الوسيلة المنهجية المثلى والمشروعة للقيام بالبحث الميدانى الأنثروبولوجى.

ومن الثابت فى تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية أن الباحثين الميدانيين لم يهتموا بتقديم التفاصيل المنهجية للتجارب الميدانية التى دفعتهم لاستنتاج المعلومات التى أدرجوها فى تقاريرهم أو مونوجرافاتهم الإثنوجرافية حتى استهل مالينوفسكى هذا التقليد الراسخ فى مقدمة كتاب "الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى" فى عام ١٩٢٢م، ففى هذه المقدمة شرح مالينوفسكى مدخله المنهجى لإجراء البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية كما يلى:

> "ليس هناك من يتصور إمكانية قيام عالم الفيزياء أو الكيمياء بوصف نتائج بحثه العلمى دون أن يقدم معالجة تفصيلية للتجارب العلمية التى قام بإجرائها وأدت به إلى هذه الاستنتاجات، ومع ذلك فإن المعالجات الإثنوجرافية بين الشعوب البدائية بالمقابل لا تحرص على تقديم التجارب (الميدانية) الفعلية التى دفعت الكاتب (الأثنوجرافى) لاستنتاجاته"(١).

(*) يفضل مايكل كاريذرس Michael Carrithers (وهو أستاذ ورئيس قسم الأنثروبولوجيا بجامعة دورهام ببريطانيا) تسمية "الملاحظة بالمشاركة"، بـ "التعلم من خلال المعايشة" Engaged Learning، فمثلما يتعلم المهاجرون سبيلهم فى الحياة داخل المجتمع المضيف، وكذلك مثلما يشارك من اعتنقوا عقيدة دينية جديدة فى مؤسسات هذه العقيدة الجديدة عليهم، كذلك الحال بالنسبة للباحثين الأنثروبولوجيين عند محاولاتهم فهم أسلوب حياة جديدة. انظر:
مايكل كاريذرس، لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة؟، ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٩، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨، ص٢٢٢.

(1) Malinowski, B.; Argonauts of the western pacific, op. cit, (The Introduction).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى الرغم من ذلك لم يشتمل كتاب "الأرجونوتس" على أية إشارة لنظرية السياق، أو أية معالجة للاتجاه الوظيفى السيكوبيولوجى الذى ظهر لديه فيما بعد، وإنما أثبت فى تلك المقدمة أن هدف الكتاب هو بيان كيف تعتمد الأعراف والنظم البدائية من الناحية الوظيفية على بعضها بعضا، وقرن هذا الهدف بهدف آخر هو فهم وجهة نظر الرجل الوطنى، وعلاقته بالحياة، والتحقق الفورى من رؤيته للعالم[١].

ولقد كانت الوظائف الفورية التى تقوم بها الأعراف فى المواقف الحية التى يلاحظها الباحث تمثل بالنسبة إليه الأساس العلمى المقبول للتفسير فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ولقد أثبت أن حرص الباحث على المشاركة الشخصية فى حياة القرية، أو الاستيقاظ مبكرا كل صباح ليتمثل الأحداث الوطنية كما تظهر للرجل الوطنى، أو الحرص على عقد الصداقات مع الوطنيين والتمتع بصحبتهم أو الاشتراك فى ألعابهم يمكن أن يساعد على تحقيق الصلة الوثيقة مع الوطنيين، وقد كان ذلك يمثل فى نظره الشرط العلمى الوحيد لتنفيذ البحث الميدانى. ولذلك فقد حرص مالينوفسكى - كما شاهدنا فى الفصل السابق - على نصب خيمته بين أهالى كيروينيا، وقد قام بوصف تجاربه الشخصية فى واقعية ميدانية مليئة بالحيوية[٢].

لم يكن مالينوفسكى فى الواقع منظراً أنثروبولوجيا، قدرما كان باحثاً ميدانياً، وقد كان أفضل ما قدمه للأنثروبولوجيا الاجتماعية هو أنه نقلها من رحاب الفكر النظرى التأملى إلى رحاب الحياة البدائية، واستطاع أن يحول الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية من الدراسة الفيلولوجية(*) الجافة إلى الدراسة الحية المتجددة للفعل الإنسانى، إذ اعتنى بشكل خاص بالسياق الثقافى للبحث الميدانى، ولقد ظهر

---

(1) Ibid.

(2) Layton, R.; An Introduction to theory in anthropology, Cambridge university press, United Kingdom, 1997, p. 190.

(*) الفيلولوجيا Philology: هو المصطلح الأقدم لعلم اللغة المقارن ثم إلى اللغة التاريخى ويستخدم للإشارة إلى البحث اللغوى التاريخى الذى يعتمد على دراسة الأدب والوثائق المكتوبة، انظر:

Hartmann, R. & F. C. Stock.; Dictionary of Language and linguistics, Applied Science Publishers LTD, London, 1972, p. 196.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التروبرياندیون فی کتاباته الإثنوجرافیة لیس بوصفهم أفراداً مجهولین قاموا بتوفیر المادة أو المعلومات الإثنوجرافیة له، وإنما بوصفهم أشخاصاً أحیاء، وقد ساعده علی ذلك حرصه علی تعلم اللغة المحلیة وعلی إدارة بحثه المیدانی فیها بالاعتماد علی الملاحظة المباشرة، ولقد أفضی به هذا الموقف المنهجی إلی رفض الأفکار السوسیولوجیة التی قدمها إمیل دورکایم، واعتناق الأفکار السیکوبیولوجیة لتفسیر الثقافة فلقد اختار مالینوفسکی الربط بین الثقافة والبحث المیدانی، أو بین البحث المیدانی وقدرة الباحث المیدانی علی فهم النظم والأعراف البدائیة فی سیاقها الثقافی بالاعتماد علی الملاحظة الفعلیة، فلقد اعتقد مالینوفسکی أن الوظیفة الأساسیة للثقافة هی العمل علی إشباع الحاجات البیولوجیة الفطریة للإنسان، وعلی الرغم من أنه لم یهتم بنشأة الثقافة، فقط سلم بأنها تمثل الوسیلة الوحیدة للبقاء الإنسانی ولیس الانتخاب الطبیعی علی ما ذهب إلیه الإثنوجرافیون التطوریون، ولقد اعتقد أن الثقافة هی ظاهرة أو موضوع فرید لا یمکن مقارنته من الناحیة الثقافیة، وقد أصبحت هذه الأفکار تعرف فی الأنثروبولوجیا الاجتماعیة البریطانیة باسم الوظیفیة السیکوبیولوجیة.

سوف نهتم فی هذا الفصل بفهم أهم عناصر الوظیفیة السیکوبیولوجیة عند مالینوفسکی، وعلی الرغم من الانتقادات اللاذعة التی تعرضت لها هذه النظریة، وبشکل أخص الانتقادات المنطقیة التی رفضت التفسیرات الغائیة(*) Tautological أو تفسیر وجود النظم الاجتماعیة فی حدود الوظیفة علی اعتبار أن وجود الوظائف لا یمکن أن یسبق منطقیاً وجود النظم الاجتماعیة ذاتها، إلا أن الباحث یری وجود علاقة وثیقة بین نظریة السیاق وبین الوظیفیة السیکوبیولوجیة عنده، فعلی عکس الوظیفیة البنائیة التی قامت علی مفاهیم وافتراضات علم الاجتماع الفرنسی اهتمت الوظیفیة السیکوبیولوجیة عند مالینوفسکی بالتنظیم السیکولوجی للأعراف أو النظم الامبیریقیة أو التفسیر الذاتی للأعراف الاجتماعیة فی سیاقها الثقافی الذی لا ینفصل عن زمن الملاحظة الشهودیة.

(*) غائیة: (أی تفسر السبب من خلال نتیجته) حیث تُفسر الظاهرة فی ضوء إسهامها فی استقرار أو "حاجات" النسق الکلی، متجاهلة الأسباب والدوافع المباشرة اللازمة لقیام هذه الظاهرة نفسها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنّ تطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية Social Anthropology فى بريطانيا يدين بطريق مباشر وغير مباشر إلى التأثيرات المتلاحمة التى مارسها اثنان من العلماء، هما رادكليف براون Radcliff - Brown (١٨٨١ – ١٩٥٦م). وبرونيسلاف مالينوفسكى[1]، ومع ذلك فقد اختلفت نظرتهما الخاصة بالعلم، فعلى حين مال رادكليف براون إلى التعاليم المنطقية التى قدمها إميل دور كايم لعلم الاجتماع الفرنسى (الطبيعة الخارجية للظواهر الاجتماعية، وضرورة دراسة الظواهر الاجتماعية كما لو كانت أشياء، وضرورة الفصل بين علم الاجتماع وعلم النفس). فقد رفض مالينوفسكى هذه التعاليم على اعتبار أنها تورط الباحث الأنثروبولوجى فى تفسير الأعراف الاجتماعية السائدة لدى الشعوب البدائية فى ضوء معتقداته الأوروبية ومنطق العلم الأوروبى. فلم تكن الدراسة العينية للنظم الاجتماعية العاملة فى المجتمع البدائى تتم – فى نظر مالينوفسكى – فى ضوء التمثيل الاستقرائى للدور الذى تقوم به فى المحافظة على استقرار هذا المجتمع، وإنما تتم فى ضوء التصوير السياقى للإسهام الذى تقوم به فى إشباع الحاجات السيكولوجية والبيولوجية للأعضاء المكونين لهذا المجتمع من حيث هم كذلك، فمن هنا أكد مالينوفسكى على ضرورة اهتمام الباحث الميدانى بالتعبير السياقى عن المعانى الاجتماعية، وعلى ضرورة ربط الأفعال الاجتماعية بمعانيها السياقية.

وبإيجاز إذا كنا نود فهم العلاقة بين نظرية السياق والوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى فإنه يجب علينا فهم الخلفية الفرنسية لمنهج التحليل الوظيفى كما قدمه إميل دوركايم ثم نتناول الوظيفية السوسيولوجة عند رادكليف براون وذلك قبل تناول أهم ملامح الوظيفية السيكوبيولوجية كما قدمها مالينوفسكى للبحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية.

---

(1) Firth, R.; "Social Anthropology", In International Encyclopedia of the social science, 1968, vol. 1, pp. 320 - 324.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً - دوركايم والتحليل الوظيفى السوسيولوجى:

لقد اهتم دوركايم أثناء المرحلة الاستهلالية للبحث الميدانى الأنثروبولوجى الحديث بتحليل المرحلة المعاصرة له من تطور المجتمعات الصناعية الأوروبية، ومع أنه لم يقم بأى بحث ميدانى أنثروبولوجى طوال حياته لأنه كان مهتما بمنح علم الاجتماع المنهج العلمى والكيان النظرى الملائم، فإنه شارك فى وضع الأسس العلمية للبحث الإمبيريقى التفصيلى للحياة الاجتماعية، وفى الواقع يمكن العثور على معظم المقدمات المنطقية والمنهجية للأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية فى المدخل السوسيولوجى الذى قدمه دوركايم لدراسة الظواهر الاجتماعية (الأوربية). وفى الواقع لقد اعتقد دوركايم بأن علم الاجتماع يمثل الطريق الجديد لعلم الإنسان[١].

فبالنسبة لدوركايم كان تاريخ علم الاجتماع يمتد بأصوله إلى أوجيست كونت A. Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧م)، فقد كان كونت - فى نظر دوركايم - هو المفكر الذى منح العلم الاجتماعى واقعاً مجسداً لمعرفة تفاصيله. فقد اعتقد كونت أن الحقائق الاجتماعية متصلة وأنه يجب معالجتها بوصفها ظواهر طبيعية محكومة بالقوانين الثابتة، فلقد حرص كونت على مد القانون الطبيعى إلى الحقائق الاجتماعية وعلى منحه مستقراً له داخل الأبحاث الاجتماعية التى يغيب عنها فى الأصل، وقد انحصر إسهام كونت فى ضرورة أن تكون العلوم الاجتماعية علوما وضعية، وأن عليها أن تتطور بالروح نفسها التى تطورت بها العلوم الطبيعية، وأن تستخدم المناهج ذاتها التى استخدمتها هذه العلوم الطبيعية مع الاحتفاظ بفراداتها الخاصة[٢].

وعلى الرغم من ذلك فلقد بقى كونت - وفقاً لدوركايم - فيلسوفا حيث قام بتطبيق فلسفته الوضعية Positivism بطريقة عقائدية، وقدم مشروعه (قانون المراحل الثلاثة)(*) على أنه الصياغة النهائية للمعرفة السوسيولوجية وليس بوصفه الاستهلال

---

(1) Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work - Ahistorical and critical study, Penguin Books, 1973, p. 409.

(2) Ibid, p. 399.

(*) وفقاً لتصور أوجيست كونت يمكن رؤية تطور الفكر الإنسانى كمتوالية تقدمية مرت خلال ثلاث مراحل متتابعة، المرحلة الأولى هى المرحلة اللاهوتية وقد حاول

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأولى للعلم الجديد[١].

وفى الترتيب الهرمى للعلوم تجاهل كونت علم النفس Psychology أقرب العلوم - فى رأى دوركايم لعلم الاجتماع - ولذلك كان العلم السابق لعلم الاجتماع فى الترتيب الهرمى عند كونت هو البيولوجيا Biology، ومع أن علم النفس كان متطوراً بوصفه علماً تجريبيا فى عصر دوركايم، ولم يكن من الممكن الفصل بينه وبين علم الاجتماع[٢] فقد تمسك دوركايم بالاستقلال المعرفى لعلم الاجتماع كما فعل كونت من قبله، وكانت الصفة الخارجية أو القهرية للحقائق الاجتماعية هى الصفة التى تفصل هذا العلم بوضوح - فى رأى دوركايم - عن موضوع تخصص علم النفس[٣]. لقد سلم دوركايم بإمكانية وجود علم نفس وضعى Positive Psychology ومع ذلك فقد كان هذا العلم يقوم بدراسة السمات الخاصة بالإنسان الفرد Individual بوصفه فاعلاً معزولاً، ومن ثم لم يكن بمقدور هذا العلم تفسير الخصائص الخارجية المشتقة من وجود الأفراد فى مجتمع. وذلك لأن علم الاجتماع هو علم مستقل قائم بذاته وموضوعه هو الحقائق الاجتماعية التى يجب دراستها فى ضوء الحقائق الاجتماعية(*)

= فيها الإنسان فهم العالم المحيط به فى مصطلحات الآلهة والأرواح، ولقد تبع هذه المرحلة اللاهوتية مرحلة أخرى نزع الإنسان فيها نحو إحلال التفسير السببى المشخص محل الكائنات الروحية فوق الطبيعية ولكن انتهت هذه المرحلة الميتافيزيقية بتقدم العلم تدريجياً وانتقال العقل الإنسانى من إرادة العلة (سواء كانت مشخصة أو روحية) إلى إرادة الطبيعة، والنزوع نحو اكتشاف القوانين الطبيعية. انظر:

Giddens , A.; Trends in the philosophy of the social sciences, op. cit., p. 9.

(1) Giddens, A.; Durkheim, Fontana Modernn Masters, G. B. 1978, p. 34.
(2) Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work", op. cit, p. 395.
(3) Giddens, A.; Durkheim, op. cit, p. 37.

(*) فالزواج مثلاً كظاهرة اجتماعية - وفقاً لدوركايم - لا يمكن تفسير وجوده بعوامل نفسية كالعاطفة والرغبة والإرادة .. الخ، بل يمكن تفسيره وتعليل وجوده بعوامل اجتماعية بحتة كتوليد العلاقات الاجتماعية الصميمة مع الجنس الآخر والحفاظ على الجنس البشرى من الانقراض وزيادة حجم السكان والتعاون والتآزر بين البشر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الأخرى. والأهم من ذلك فإن هذا الموضوع لا يمكن معرفة خصائصه سلفاً[1].

وفى ضوء ثنائية ما هو اجتماعى / وما هو فردى (ثنائية علم الاجتماع / علم النفس) قدم دوركايم رؤيته لمنهج التحليل الوظيفى فى علم الاجتماع، ولقد حذرنا من إمكانية أن يقوض علم النفس منهج التحليل الوظيفى السوسيولوجى، وذلك لأن هذا التفسير كان يتضمن تصور الحاجات" Needs ولكنها كانت فى رأيه الحاجات الاجتماعية وليس الحاجات الفردية، لقد رفض دوركايم تأويل المجتمع - كما فعل أسلافه سبنسر H. Spencer (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) وتايلور Tylor - بوصفه وسيطاً لإشباع حاجات الأفراد (وهو الموقف الذى اتخذه مالينوفسكى كما سنرى فيما بعد) لأن هذا التفسير قام - فى رأيه - على تصور خاص للطبيعة البشرية. وقد كانت الحقائق الاجتماعية لا تُشتق فى رأى دوركايم من حالات الوعى الفردى وإنما من الظروف الاجتماعية بكاملها. ففى رأى دوركايم يوجد صدع بين علم النفس وعلم الاجتماع يماثل الصدع القائم بين البيولوجيا والعلوم الكيميائية[2]. ولذلك فإنه فى كل مرة يتم فيها تفسير الحقائق الاجتماعية فى ضوء الحقائق السيكولوجية فإن هذا التفسير سيكون تفسيراً زائفاً.

أ - استقلال الحقائق الاجتماعية:

لقد كانت القضية المحورية عند دوركايم ترتبط بالنظم الثقافية والاجتماعية. ولقد ذهب إلى أن الفرد ليس بمقدوره خلق المعتقدات والممارسات الجمعية لأن الفرد بوصفه فرداً لا يستطيع العيش خارج حياة الأحاسيس (الشهوات أو الرغبات الفطرية الحيوانية)، فلقد رأى دوركايم فجوة عميقة بين الحياة العقلية للفرد والحياة الجمعية للمجتمع، وقد كان من المستحيل - فى رأيه - رد أو تفسير (الحياة الجمعية للمجتمع)

= وتكوين الأسرة. انظر: إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة: دراسة تحليلية فى النظريات الاجتماعية المعاصرة، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٥، ط١،ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(1) Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work", op. cit, p. 83.
(2) Giddens, A.; Durkheim, op. cit, p. 39.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فى ضوء الأدنى (الإرادة العقلية للإنسان)[١].

لقد ظهرت هذه الفكرة بشكل واضح فى كتاب دوركايم "تقسيم العمل الاجتماعى" De la division du travil social (١٨٩٣)، الذى طور فيه تحليله السوسيولوجى بالإحالة إلى التحليل السيكولوجى النفعى الذى قدمه سبنسر للتعاون والتماسك الاجتماعى، فقد كان موقف سبنسر يذهب إلى أن الأفراد يحصلون من الدخول فى العلاقات الاجتماعية مع الآخرين على الفرص الملائمة لتحقيق مصالحهم الشخصية الخاصة، ومن ثم فقد كان التفكير الواعى عند الفرد يقدم فى رأى سبنسر التفسير الملائم للتعاون فى المجتمع، فالنظام الاجتماعى والاتساق القائم بين الأفراد إنما يأتى بشكل إرادى تلقائى من الأفراد دون الحاجة إلى القسر أو الإجبار من المجتمع[٢].

أما دوركايم فقد أكد أن الاهتمام الذاتى العفوى أو المفرط لا يؤدى فى الواقع إلى انجذاب الأفراد معاً، إنه لا يخلق شيئاً غير الروابط المؤقتة الزائلة بينهم، وفى معظم الأحيان يحرضهم ضد بعضهم بعضاً، حيث تؤدى الأنانية فى الأفراد دائماً إلى نشوب حرب الكل ضد الكل، وليس إلى التعاون أو الاتساق بينهم، ذلك لأن فرص الصراع من أجل البقاء تتساوى - فى هذه الحالة - مع فرص السلام الاجتماعى أو التماسك فى المجتمع لأن الأفراد محكومون بنسق من المعتقدات والعواطف الجمعية يطوق أنانيتهم الطبيعية وأن هذا النسق لا يعبر عن تلك الأنانية الطبيعية بقدر ما ينظم مصالحهم الشخصية ويقيدها، ومن ثم فهو يميز واقعاً فريداً متميزاً بذاته، ولذلك رفض دوركايم إمكانية اشتقاق الظواهر الاجتماعية من الاهتمامات الإرادية الفردية[٣]. فالشخص حين يؤدى واجبه كأخ أو زوج أو مواطن، وحين ينجز العهود التى أبرمها فإنه يقوم بأداء واجبات خارجية حددها العرف والقانون. وعلى الرغم من أن هذه الواجبات لا تتعارض مع عواطفه الشخصية، وعلى الرغم من أنه يشعر بحقيقتها شعوراً داخلياً، فإن هذه الحقيقة تظل خارجة عن شعوره بها. وذلك لأنه ليس هو الذى ألزم نفسه بها ولكنه تلقاها عن طريق التربية. وكذلك الأمر فيما يمس العقائد والطقوس

(1) Hatch, E.; Theories of man and culture, op. cit., p. 168.
(2) Ibid, p. 168.
(3) Ibid, p. 169.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدينية. فإن المؤمن يجدها تامة التكوين منذ ولادته. وإنما كانت هذه العقائد أسبق في الوجود من الفرد الذى يدين بها للسبب الآتى، وهو أن لها وجوداً خارجياً بالنسبة إليه. وأن مجموعة الألفاظ التى يستخدمها الفرد للتعبير عن أفكاره، ومجموعة النقود التى يستعين بها على قضاء ديونه والوسائل الاقتصادية التى يستخدمها فى علاقاته التجارية، والتقاليد التى يجرى بها العرف فى مهنته، هى كلها ظواهر اجتماعية تؤدى وظيفة مستقلة عن طريقة استخدام الفرد لها. وإذا استعرض المرء أفراد المجتمع واحدا بعد آخر فإنه يستطيع تكرار ما سبق بصدد كل فرد منهم. فهذه إذن ضروب من السلوك والشعور التى تمتاز بخاصية يمكن ملاحظتها بسهولة، وهى أنها توجد خارج شعور الأفراد[١]. وعلى هذا الأساس أكد دوركايم أن الحقائق الاجتماعية هى حقائق خارجية External بالنسبة للفرد، لأن الفرد المنعزل لا يستطيع أن يؤلف الظواهر الاجتماعية (كاللغة أو الدين أو الأخلاق أو القرابة) التى يخص توليفها المجتمع ككل.

ب - الصفة الخارجية للحقائق الاجتماعية:

يُعرف دوركايم الحقيقة الاجتماعية بأنها:

"كل ضرب من السلوك. ثابتا كان أم غير ثابت، يمكن أن يباشر نوعا من القهر الخارجى على الأفراد، أو هى كل سلوك يعم فى المجتمع بأسره، وكان ذا وجود خاص مستقل عن الصور التى يتشكل بها فى الحالات الفردية"[٢].

أى لا بد من توافر شرطين لتوكيد أن الواقعة المشاهدة هى واقعة اجتماعية: الشرط الأول هو القوة القاهرة التى تمارسها على الأفراد، والتى تتجلى عموماً فى الجزاءات المصاحبة لأنماط السلوك. أما الشرط الثانى فيتمثل فى مدى انتشارها وعموميتها فى الجماعة.

وفى هذا يقول دوركايم:

---

(١) إميل دوركايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم والسيد محمد بدوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤، ص٥١.

(٢) نفس المرجع، ص٦٨، ٦٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

"أنه لتأكيد صحة هذا التعريف للظاهرة الاجتماعية، فإنه يكفى أن نقوم بملاحظة الطريقة التى تتبع فى تربية الصغار، ذلك لأن المرء إذا لاحظ الأشياء حسب ما توجد عليه فى الوقت الحاضر وحسب ما كانت عليه دائما فى الماضى، رأى، لأول مرة، أن جميع أنواع التربية تنحصر فى ذلك المجهود المتواصل الذى نرمى به إلى أخذ الطفل بألوان من الفكر والعاطفة والسلوك التى ما كان يستطيع الوصول إليها لو تُرك وشأنه. وبيان ذلك، أننا نضطره، منذ حداثته، إلى الأكل والشراب والنوم فى ساعات معينة، ونوجب عليه النظافة والهدوء والطاعة ثم نجبره على التعلم، وعلى مراعاة حقوق الآخرين، وعلى احترام العادات والتقاليد. كذلك نوجب عليه العمل، وغير ذلك من الأمور، وإذا لم يشعر الطفل بهذا القهر كلما تقدم به العمر، فإن السبب فى ذلك يرجع إلى أن القهر عديم الفائدة. ومع ذلك فإن هذه العادات لا تحل محل القهر إلا لأنها تصدر عنه"(١).

جـ - طبيعة المنهج السوسيولوجى:

بعد أن ناقش دوركايم مبدأ استقلال الحقيقة الاجتماعية عن الحقيقة النفسية الفردية، وبعد أن أكد خارجية الحقيقة الاجتماعية كان عليه تحديد منهج دراستها، ومن هذا المنظور ذهب إلى ضرورة النظر للظواهر أو الحقائق الاجتماعية بوصفها "أشياء" أى أنها ظواهر شيئية (Materialized Phenomena)(*) وهو المبدأ الذى جلب له

---

(١) إميل دوركايم، المرجع السابق، ص٥٦، ٥٧.

(*) يقول "كولنجوود Collingwood (١٨٨٩ - ١٩٤٣م) إن مبدأ شيئية الظواهر يشوه طبيعة العلم الوضعى، لأنه يتضمن الإيمان بحقيقة كامنة وراء ظواهر الطبيعة. ثم إن هذا المبدأ يشوه أيضاً موقف علم الاجتماع، لأنه يعنى أن عالم الاجتماع ليس إلا مجرد مشاهد للوقائع والظواهر التى يعرض لها بالوصف. انظر:
قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع الفرنسى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧١، ط ١، ص٤١٤ - ٤١٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الانتقاد[١]. ومع ذلك لم يكن هذا المبدأ مبدءاً انطولوجياً Ontological أو وجودياً وإنما كان مبدأ ميثودولوجياً. على افتراض أن الحقائق الاجتماعية لديها وجوداً موضوعياً مستقلاً عن أى فرد، ومن هنا يجب أن تدرس بمناهج الملاحظة الموضوعية (أو الاستقرائية).

وهذه الحقائق أو الظواهر الاجتماعية لا ينبغى دراستها دراسة فلسفية أو المقارنة بينها وبين الظواهر الطبيعية الأقل مرتبة منها فى الوجود، وإنما يجب أن نعلم أن هذه الظواهر هى المادة الوحيدة التى يمكن اتخاذها موضوعاً لعلم الاجتماع، فإن الشيء هو حقيقة ما يقع تحت ملاحظتنا، أو هو ما يقدم نفسه لها، أو هو بالأحرى ما يفرض نفسه عليها فرضاً[٢].

ويقول دوركايم:

> "يجب علينا أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية، وذلك لأنها لا تقع تحت ملاحظتنا إلا على هذه الكيفية، ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجوداً بحسب الظاهر فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع، وسيرى المرء حينئذ كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلى للأفراد، إذا صح هذا التعبير"[٣].

لقد كانت المكاسب الفورية للأفكار الدوركايمية واضحة. فإلى جانب التأثير الذى مارسه دوركايم فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية وبشكل أخص لدى راد كليف براون (كما سنرى فيما بعد) دعم علماء مدرسة الحولية الفرنسية " Annee Sociologique"[*] هذه الأفكار وبشكل أخص الفكرة القائلة بأنه يجب تفسير الحقائق

---

(1) Ashley, A.; Sociological theory "classical statements", Allyn and Bacon LTD, London, 1995, pp. 116 - 117.

(٢) إميل دوركايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، مرجع سابق، ص٩٠.

(٣) نفس المرجع، ص٩١.

(*) أصدر إميل دوركايم "الحولية الفرنسية لعلم الاجتماع" فى نهاية القرن التاسع عشر، وعلى وجه التحديد عام ١٨٩٨، والتى تولى رئاسة تحريرها فيما بعد ابن أخته

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماعية فى ضوء الحقائق الاجتماعية الأخرى وهى الفكرة التى صاغها دوركـــايم فى المبدأ التالى:

"يجب على المرء ربط الحقائق الاجتماعية (الدينية والتشريعية والأخلاقية والاقتصادية) بمحيط اجتماعى خاص وبـــنمط محـــدد مـــن المجتمـــع. وفـــى الخصائص التكوينية لهذا النمط المحدد من المجتمع يجب على المرء (الباحث) البحث عن الأسباب التى تحكم الظاهرة الخاضعة للدرس"(١).

لقد طبق علماء الحولية الفرنسية(*) هذا المبدأ فى مجالات قد تبـــدو بعيـــدة عـــن البحث السوسيولوجى فلقد اهتم مارسيل مـــوس Marcel Mauss (١٨٧٢ – ١٩٥٠م) باكتشاف المحددات الاجتماعية للقرابين والسحر والابتهالات الدينية، ولقد ذهب إلى أن الابتهال ظاهرة اجتماعية ليس فقط فى محتواه وإنما أيضا فـــى شـــكله، لأن أشـــكال الابتهال لديها أصلاً اجتماعياً شاملاً، ولا توجد خـــارج الأداء الجمعـــى لأى شـــعيرة، فالفرد قد ينتحل لعواطفه الشخصية لغة لم يقم فى الأصل بابتكارهـ ا، ولـــذلك تظـــل الشعيرة الجمعية هى الأساس بالنسبة للابتهال الفردى تماما(٢).

أما موريس هالفاكس M. Halbwachs (١٨٧٧ – ١٩٤٥م) فقد بحـــث "الإطـــار الاجتماعى للذاكرة" حيث نجده ينكر على علماء النفس قولهم فى عقد المماثلات بـــين الحلم والتذكر. ويؤكد هالفاكس أن هناك اختلافاً حاسماً بين عمليـــة التـــذكر وظـــاهرة الأحلام، فليس الحلم عند هالفاكس عملية تذكر، تترك لنفسها العنان طليقة من كل قيـــد

= (مارسيل موس). وكانت هذه المجلة بمثابة منبر ثقافى، ومنتدى علمى للحـــوار الشيق بين العلماء الفرنسيين، وغيرهم من الدول الأخرى حول القضايا الاجتماعية والموضوعات الإثنولوجية. انظر:

Http://www.absoluteastronomy.com/encyclopedia/alan/annee_sociologique.htm 5/06/2005.

(1) Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work", op. cit., p. 400.

(*) من هؤلاء العلماء هنرى هوبـــارت Henri Hubert، وروبـــرت هرتـــز Robert Hertz، ومارسيل موس Marcel Mauss، وبوجل Celestin Bougle، ومـــوريس هالفاكس Maurice Halbwachs، وفرانسو سيماند Francois Simiand، وغيرهم.

(2) Ibid, p. 401.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اجتماعى. حيث أننا فى ظاهرة الأحلام، إنما تمر أمامنا مختلف الصور المضطربة التى لا نستطيع أن نحدد أزمانها أو مكانها، على عكس الحال تماما فى عملية التذكر التى تفترض جهدا حقيقيا لتكوين هيكل من الأفكار، وتأليف إطار متناسق من العناصر والصور. كما أننا نستعرض الماضى - فى ظاهرة الأحلام - ونرى ذلك الماضى فى صور مبعثرة لا ترتيب بينها، إلا أننا نحاول فى عملية التذكر، أن نستحضر هذا الماضى فى صور مرتبة، ونسترجعه فى استحضار منظم للأحداث والوقائع، ويرى هالفاكس أن المجتمع يزودنا فى رأيه "بالإطارات Les Cadres" التى تساعدنا فى إتمام عملية التذكر، حيث أن كل عملية من عمليات التذكر إنما تتصل فى أذهاننا بعناصر اجتماعية تتمثل فى "أشخاص" أو "جماعات" أو "أماكن". ومعنى ذلك أن الوسط الاجتماعى - عند هالفاكس - هو المرجع الوحيد الذى يحدد لنا معالم الطريق فى الكشف عن عملية "التذكر"، تلك العملية التى كان يظن أنها عملية فردية ذاتية بحتة، إذ أن كل استحضار للذاكرة - يقتضى عند هالفاكس - تدخل إطارات اجتماعية يعجز المرء بدونها عن إعادة بناء الماضى وارتباط الذكريات(١).

لقد كان دوركايم عنيفا فى نقده للمنهج غير الملائم للبحث السوسيولوجى، وهو أمر يمكن رؤيته - على ما يذكر لوكس Lukes - فى العديد من المراجعات التى نُشرت فى الحولية وفى انتقاداته اللاذعة للطلاب المرشحين للحصول على درجات الدكتوراه وكما يخبرنا ديفى M. Davy لقد أصيب أحد الطلاب بالرعب من طريقة دوركايم الحاسمة فى امتحانه حين قال "سيدى بإمكانك أن تقتنى منهجاً ليس منهجى ولكن بإمكانى أن أفهمه، أو بإمكانك أن تستخدم منهجى وعندئذ سأشعر بالرضا، أو ثالثا بإمكانك - مثلما هو الواقع - عدم استخدام منهج على الإطلاق بحيث لن يكون بمقدورى أن أفهمك على الإطلاق"(٢).

ولقد كان دوركايم ناقداً بشكل أخص للمؤرخين الذين نظر إليهم بوصفهم مفرطى

---

(١) قبارى محمد إسماعيل، علم الاجتماع والفلسفة "الجزء الثانى نظرية المعرفة"، دار الطلبة العرب، بيروت، ١٩٦٨، ط٢، ص ٢٣ - ٢٤.

(2) Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work", op. cit., p. 404.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النزوع إلى الوصف وليس إلى البحث عن التفسير، وقد قرر دوركايم أن المنهج التاريخى هو المساعد الذى لا غنى عنه للسوسيولوجيا حيث لعب التاريخ أو يجب أن يلعب فى ترتيب العوالم الاجتماعية دوراً مماثلاً للدور الذى لعبه الميكروسكوب فى ترتيب (نظام) العوالم الفيزيقية. فلقد قدم التاريخ النموذج الرئيسى للاقتراب من المادة للباحث السوسيولوجى فى بحثه عن العلاقات العامة والقوانين القابلة للتحقق فى المجتمعات المختلفة[1]، حيث كانت العناصر الجزئية للثقافة مثلاً تفسر وتحلل فقط، عن طريق محاولة الرجوع إلى أجزاء أو عناصر أخرى للثقافة، أى أن كل عنصر ثقافى جزئى، إنما يفسر عن طريق محاولة البحث عن أصوله الجذرية وتتبعها فى باطن البناء التاريخى لماضى الثقافة برمتها. بمعنى البحث عن العناصر الثقافية والسمات الجزئية داخل إطار ماضى من المركبات الثقافية Culture Complex.

ولم يكن دوركايم يوافق على التنظير السوسيولوجى الذى يدار فى فراغ فلسفى ولا يرتبط بتفاصيل الحقائق أو توليد الفرضيات الامبيريقية وتبين الفقرة التالية هذا الموقف حيث يقول:

> "مازال لدينا كتب تشتمل تعميمات فلسفية وثيقة ومألوفة عن الواقع الاجتماعى. إذ لا تتضمن هذه المؤلفات أى موضوع يعطينا انطباعاً بأن المؤلف قد تفاعل مباشرة مع الحقائق التى يتحدث عنها، فالأفكار التى يطورها تأتى بدون مثال واحد يجسدها، أو تعبر عن مشكلة سوسيولوجية محددة وصحيحة. ومع ذلك لا يملك المرء إزاء روعة موهبة المؤلفين الجدلية والأدبية الاحتجاج على ثرثرة المنهج الذى اتبعوه فى تأليف كتبهم وقدرته على انتهاك كل ممارستنا العلمية مع استمرار تداوله. ولكن نحن نعرف الآن أنه ليس بمقدور المرء تأمل طبيعة الحياة دون أن يتعرف على تقنيات علم البيولوجيا، فوفق أى امتياز سُمح للفيلسوف تأمل المجتمع دون أن يدخل فى تبادل فكرى مع تفاصيل الحقائق الاجتماعية؟"[2].

---

(1) Ibid, p. 403.
(2) Ibid, p. 404.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً ـ الوظيفية السوسيولوجية عند راد كليف براون:

لقد عرف براون الوظيفة Function بأنها الدور الذى يؤديه أى نشاط جزئى فى النشاط الكلى الذى يكون هو جزء فيه. هكذا تكون وظيفة أى نظام اجتماعى كامنة فى الدور الذى يؤديه فى البنية الاجتماعية المكونة من أفراد يرتبطون ببعضهم فى كل واحد متماسك للعلاقات الاجتماعية المحددة، ووظيفة أية عادة اجتماعية هى الدور الذى تقوم به العادة المعينة فى مجمل الحياة الاجتماعية على أساس أن هذه الحياة هى عماد النسق الاجتماعى الكلى. ويعطى براون أهمية للحياة الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية طالما أن النسق الاجتماعى يؤلف، فى رأيه، وحدة كيان ووظيفة، أى أنه ليس مجرد تجمع أو حشد وإنما هو كل متكامل مثله مثل الكائن العضوى(١).

ومن أهم الاتجاهات التى تأثر بها براون وهيمنت على أفكاره مسألة المماثلة بين الكائنات الحية والحياة الاجتماعية، أى على أساس المشابهة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية البيولوجية كما كان الحال عند إميل دوركايم، إذ يرى براون أن المجتمع مثله مثل الكائن الحى يتألف من أجزاء أو وحدات تتداخل وظيفياً ويعتمد على بعضها بعضاً، فمثلاً أنه كما تتعاضد أعضاء الكائن الحى للحفاظ على الكائن حياً تعمل نظم المجتمع وتقاليده بدورها على بقاء المجتمع واستمراره(٢)، ولذلك انطلق راد كليف براون من "البيولوجيا" وطور مدخلا وظيفياً سوسيولوجياً لتحليل النظم الاجتماعية ولذا كتب فى تقديمه للجزء النظرى من كتاب "سكان جزر الأندمان": "مثلما أن لكل عضو من أعضاء الجسد الحى دوراً يؤديه فى الحفاظ على الحياة العامة للكائن الحى، يلعب كل عرف وكل معتقد فى المجتمع البدائى دوراً محدداً فى الحياة الاجتماعية للمجتمع المحلى، حيث تشكل كتلة النظم الاجتماعية والأعراف والمعتقدات فى المجتمع المحلى كلاً واحداً أو "نسقاً" اجتماعياً، وهذا النسق الاجتماعى هو الذى يحدد حياة المجتمع،

---

(1) URL:http://www.arkamani.org/vol_2/anthropology_file_2/theory_in_anthropology_6.htm. 10/07/2005.
(2) URL:http://www.arkamani.org/vol_3/anthropology_file_3/theory_in_anthropology_7.htm 10/07/2005.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وتلك الحياة ليست أقل صدقاً أو خضوعاً للقوانين الطبيعية من حياة الكائن الحى[١].

وفى الحقيقة لقد قام معظم التحليل الوظيفى السوسيولوجى الذى قدمه رادكليف براون - فى كتابه سكان جزر الأندمان - للأعراف والمعتقدات الأندمانية على مفهوم القيمة الاجتماعية Social Value، ويقصد الأندمانيون به التأثير الذى يمارسه الشىء على رفاهية المجتمع، فقد استثمر الأندمانيون هذا المفهوم فى ضوء إعتقادهم فى القوى الخارقة للطبيعة، وعلى سبيل المثال: لأن أدوات القنص (السهام والأقواس) قد شحنت بقوة خارقة للطبيعة، فإن لها قيمة اجتماعية، حيث أن بمقدورها دفع أذى الأرواح الشريرة، وكذلك فقد شحنت الرياح الموسمية بقوة خارقة للطبيعة، فقد كان هبوب هذه الرياح الموسمية العاصفة فى نظرهم تعبير عن غضب أحد الكائنات الأسطورية الخارقة للطبيعة يطلق عليه Biliku، ولذلك فكلما عظمت القيمة الاجتماعية للشىء أو التأثير الذى يمارسه فى الحياة الاجتماعية الأندمانية كلما ازداد اعتقاد الأندمانيين فى قوته الخارقة للطبيعة[٢].

من الواضح تماما فى هذا التحليل أثر التفسير السوسيولوجى الذى قدمه دوركايم للنظم الاجتماعية، ومع ذلك لم يخضع راد كليف براون الفرد للمجتمع بالطريقة ذاتها التى اتبعها دوركايم، لأنه اعترف - على الخلاف من دور كايم - بأن أعضاء المجتمع قد يستهلون بشكل شعورى متعمد التغير الاجتماعى، حين يدركون عدم ترابط نسقهم الاجتماعى. وعلى سبيل المثال يشترط طقس ذرف الدموع (البكاء) الاجتماعى فى المجتمع الأندمانى أن يعانق الأشخاص الذين تباعدوا عن بعضهم بعضاً فترة من الزمن كل منهم الآخر، والانخراط فى البكاء الشديد لالتقائهم مرة ثانية، وقد كان قيام الأندمانيون بهذا الفعل الاجتماعى الحتمى يؤدى فى رأى راد كليف براون إلى إزالة التوترات العاطفية النسبية التى قد تهدد أمن الكيان الاجتماعى المتحقق وسلامته، وبالمثل يستخدم الأندمانيون الرقص فى طقوس إحلال السلام لتهدئة مشاعر الغضب الجمعى التى قد تهدد أمن الكيان الاجتماعى وسلامته ومن ثم تصبح العلاقات الحديثة المسالمة

(1) Malefijt, A. De.; Images of man: Ahistory of Anthropological Thought, N. Y, 1974, p. 125.
(2) Hatch, E.; Theories of Man & culture, op. cit., p. 218.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علاقات متحققة بالفعل بينهم[١]، والأكثر من ذلك فلقد فسر رادكليف براون الأعراف الاجتماعية – وعلى الخلاف من دور كايم – فى ضوء الآليات التكيفية التى تمكن الكائنات الإنسانية من العيش فى عالم اجتماعى منظم، فلقد حدد راد كليف براون وظيفة النظام الاجتماعى بـ: "الدور الذى يلعبه هذا النظام فى النسق الكلى للتكامل الاجتماعى المتحقق الذى يعد هذا النظام جزءاً جوهرياً فيه"، وباستخدامه عبارة "التكامل الاجتماعى" فقد كان يفترض أن وظيفة الثقافة ككل هى توحيد الكائنات الإنسانية داخل بناءات اجتماعية ثابتة، وذلك لإتاحة الفرصة لقيام الحياة الاجتماعية المنظمة[٢].

ولقد تواصل هذا المدخل التكاملى فى كل أعماله التى طبعت حتى عام ١٩٣٠م، حين بدأ راد كليف براون من جديد فى استكشاف وظائف بعض النظم المحددة، ومن أشهر التحليلات الوظيفية التى قدمها راد كليف براون بعد ظهور كتاب "سكان جزر الأندمان" ذلك التحليل الذى تناول علاقة المزاح والتحاشى، فعلاقة المزاح هى عرف يسمح للفرد أو يجبره على أن يمزح ويقوم بمضايقة فرد آخر بشرط أن لا يظهر هذا الفرد الضجر، إنها علاقة من عدم الاحترام المسموح به، أما علاقة التحاشى فهى المرآة المقابلة لعلاقة المزاح، حيث تتميز بالاحترام التام بين الأفراد، لدرجة قد تصل إلى عدم الاحتكاك بين الأفراد الداخليين فيها. ووفقاً لراد كليف براون فقد كانت علاقة المزاح والتحاشى تظهر فى نمط محدد من الموقف الاجتماعى، بمعنى أنها تظهر حين تتميز العلاقة الاجتماعية بين الأفراد بالانجذاب والانفصال كلاهما، أو حين تتميز هذه العلاقة الاجتماعية بالاقتران والانفصال الاجتماعى كلاهما. وعلى سبيل المثال: حين يتزوج الرجل فإنه يقيم علاقة مهمة مع أقرباء زوجته، ولذلك تتسم علاقته بهم بالاقتران، ولكنه فى الوقت نفسه يعتبر أجنبياً عنهم وبالتالى تتميز علاقته بهم بالانفصال، ولأن هناك احتمالاً دائم للاختلاف فى الاهتمامات بين جماعته القرابية والجماعة التى تنتمى إليها زوجته، فإن الصراع بينهما قد يتهددهما باستمرار، ولكى تدوم هذه العلاقة فإنها تدوم بأسلوبين، الأول عن طريق تأسيس علاقة التحاشى ومطالبة الأفراد المعنيين بإظهار الاحترام التام فيما بينهم، والآخر عن طريق تأسيس

(1) Ibid, p. 219.
(2) Malefijt, A. de.; Images of man, op. cit., p. 195.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

علاقة المزاح التى تمنع العداوة نتيجة المضايقة المازحة وفرض عدم إظهار الضجر. ومع ذلك فقد كان مثل هذا التحليل الوظيفى يتطلب وجود نسق اجتماعى ما، وذلك لأن بقاء هذا النسق واستمراره فى الوجود هو الهدف الذى تسعى الوظائف التى تقوم بها النظم الاجتماعية لتحقيقة فى الأصل، فمن هنا استلزم مفهوم "الوظيفة" عند براون وجود مفهوم آخر، هو بالتحديد مفهوم "البناء الاجتماعى"[١].

وفى الحقيقة لقد كان فى المدخل الوظيفى السوسيولوجى عند راد كليف براون الكثير مما يشترك فيه مع أصحاب المذهب النفعى من أمثال سبنسر وتايلور وبنتام Bentham الذين نقدهم دور كايم أكثر مما يشترك فيه مع المخطط الدوركايمى، فلقد استخدم دوركايم بشكل أصيل التفسيرات السببية والوظيفية والتأويلية، ومع ذلك انحاز راد كليف براون للتحليل الوظيفى وقام بوضعه فى قلب مشروعه النظرى، وهذا معناه أنه قلص بشكل كامل من أهمية الدور الذى قام به الإطارين الأخريين (السببى والتأويلى) من التفسير فى مخطط دور كايم[٢].

ولقد كان مفهوم البناء الاجتماعى Social Structure فى الواقع هو المفهوم الذى تمتع بالمغزى الأعمق بين كل المفهومات النظرية التى قدمها راد كليف براون للأنثروبولوجيا الاجتماعية. فلقد لاحظ أن المجتمعات البدائية تفرض على الباحث الأنثروبولوجى المشكلات ذاتها التى يواجهها عالم الطبيعة الاليكترونية أو الفسيولوجيا، حيث كان يتألف الجزيئى (سواء المادى أو الحى) من الوحدات المكونة له التى تتميز كل وحدة منهما بمقاومة وجذب الوحدات الأخرى. ومثلما كان عالم الفيزياء الاليكترونية يحرص على اكتشاف الكيفية التى تؤدى إلى بقاء الوحدات المكونة للجزيئى معاً، أو كان عالم الفسيولوجيا يهتم بتفسير الوظائف التى يقوم بها الأعضاء للحفاظ على حياة الكائن الحى، لم يكن بقاء المجتمع - فى نظر راد كليف براون - بقاءاً آلياً أو أتوماتيكياً ثابتاً، ولذلك رأى أن من واجب الباحث الأنثروبولوجى البحث عن العوامل الاجتماعية التى تسهم فى المحافظة على التماسك الاجتماعى وثبات

---

(1) Hatch, E.; Theories of man & culture, op. cit., p. 222.
(2) Ibid, p. 229.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجتمع أو استمراره فى الوجود[١].

واعتبر راد كليف براون أن البناء الاجتماعى ترتكز عليه الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إذ يستبعد راد كليف براون الدراسة الوصفية للثقافة، ولا يستخدم كلمة "ثقافة" فى دراسته العلمية المنهجية للبناء الاجتماعى لأن هذه الكلمة لا تدل فى رأيه على ما يمكن ملاحظته عينياً، فنحن لن "نشاهد ثقافة بحال" ما دامت كلمة "الثقافة" لا تعنى ولا تشير إلى أية حقيقة عينية، بل إنها تعنى تجريداً، بل وتجريداً غامضاً مبهماً، ولذلك يرفضها راد كليف براون بشدة، ويطالب بالتركيز على العلاقات المتبادلة المكونة للبناء الاجتماعى. والبناء الاجتماعى عنده هو شبكة العلاقات الاجتماعية الفعلية التى تقوم بين أشخاص. فالبناء القرابى لأى مجتمع - مثلا - يكون من العلاقات الثنائية كالعلاقة بين الأب والابن، أو بين الخال وابن الأخت، ولا يقتصر البناء الاجتماعى على هذه العلاقات، وإنما يتضمن أيضاً ذلك التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية[٢].

ويميز راد كليف براون بين الأشخاص Persons والأفراد Individuals فالإنسان من حيث هو فرد هو الكائن العضوى البيولوجى، الذى يتكون من مجموعة هائلة من جزئيات وتغيرات وعمليات فسيولوجية سيكولوجية، ومن هنا كان الإنسان كفرد موضوعاً لدراسة علماء الفسيولوجيا، أما الإنسان كشخص، فإنه عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعية، فهو مواطن إنجليزى، مثلاً، وهو زوج وأب، وممارس مهنة معينة، وهو عضو فى جماعة دينية.

وبذلك يعتبر راد كليف براون أن الإنسان كشخص Person هو موضوع دراسة الأنثروبولوجى، يدرسه فى ضوء البناء الاجتماعى، والشخص عنده بهذا المعنى لا من حيث هو كائن حى، بل باحتلاله مكانة أو مركز اجتماعى - هو اللبنة الأولى التى

---

(1) Leach, E.; "Social structure", in International Encyclopedia of the social science, vol. 14, 1968, pp. 482 - 489.

(٢) قبارى محمد اسماعيل، راد كليف براون، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٧، ص٣٤٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يتكون منها البناء الاجتماعى ذلك الذى يستمر باستمرار التنظيم الاجتماعى الذى ينظم أدوار الأشخاص ويحدد علاقاتهم بعضهم ببعض. وهذا هو السبب فى استمرار الأمة، القبيلة، والهيئة، أى أن استمرار البناء الاجتماعى رغم تغير وحداته يماثل تماماً استمرار البناء العضوى رغم تغير وتجدد خلاياه(١).

ولأن البناء بشكل عام هو الترتيب المنظم للأجزاء كما يظهر - على سبيل المثال - فى الموسيقا وفى اللغة وفى البناء المعمارى فقد كان البناء الاجتماعى فى رأى راد كليف براون يمثل الترتيب المنظم للعناصر أو العمليات الاجتماعية التى تشكل معاً وحدة النسق الاجتماعى القائم، وقد كانت المكانات الاجتماعية التى تشغلها الكائنات الإنسانية فى المجتمع تمثل فى رأيه الوحدات أو الأجزاء الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعى، ولكى يوضح راد كليف براون الصلة بين البناء الاجتماعى والوظائف التى تقوم بها الوحدات الاجتماعية المكونة له عاد إلى "البيولوجيا"، فكتب يقول:

> يتكون بناء الكائن الحى من الترتيبات المنظمة لأجزائه، ولأن وظيفة تلك الأجزاء تنحصر فى إقامة العلاقات المتبادلة بين هذه الترتيبات وبناء الكائن الحى كذلك الأمر فإن الوظيفة الاجتماعية هى الصلة المتبادلة بين هذه الترتيبات وبناء الكائن الحى كذلك الأمر فإن الوظيفة الاجتماعية هى الصلة المتبادلة بين الحياة الاجتماعية والبناء الاجتماعى، ولأن الظواهر الفسيولوجية ليست هى الناتج المترتب على طبيعة الخلايا الحية، وإنما تم تنظيم هذه الخلايا الحية ذاتها بطرق نوعية بحيث أمكن فى ضوئها أن تقوم الأعضاء المختلفة بوظائفها المختلفة بما يجعل استمرار الكائن الحى فى الوجود أمراً محتملاً، فعلى هذا الأساس يمكن دراسة البناء الاجتماعى ليس فى ضوء دراسة الأعضاء المكونين للمجتمع، وإنما بتفحص الترتيبات التى تقوم بها الوظائف الاجتماعية التى يقومون بها بما يجعل المجتمع قائما"(٢).

وعلى ذلك فإن فكرة الوظيفية عند راد كليف براون تقوم على أساس المماثلة بين

---

(١) حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الأنثروبولوجيا فى المجال النظرى، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٨، ص٣١.

(2) Malefijt, A. De.; Images of man, op. cit., p. 196.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحياة الاجتماعية والحياة العضوية، فقد تكلم عن وظيفة ضربات القلب الفسيولوجية، أو وظيفة السوائل المعوية فى علاقتها بالبناء العضوى. ومعنى هذا أن الوظيفة هى الدور أو النشاط الاجتماعى الجزئى فى النشاط الكلى الذى يؤلف جزءاً منه. أى أن للنظم وظيفة معينة تؤديها فى البناء الاجتماعى الذى يتألف من الناس الذين يرتبطون بعضهم ببعض فى كل متماسك عن طريق علاقات اجتماعية مقررة.

ثالثاً: الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى:

لقد كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية عندما ظهر مالينوفسكى لا تزال علماً وليداً يقاوم سطوة المنهج التطورى المقارن، وكان الدفع الفكرى الوحيد فيها آتياً من مدرسة الحولية الفرنسية، فلقد اهتدى مالينوفسكى مثلما اهتدى راد كليف براون (وهما العالمان اللذان مارسا هذا التأثير المهيمن فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية فى بريطانيا خلال الربع الثانى من القرن العشرين) إلى الأفكار الفرنسية، ولكن على حين ظل راد كليف براون مخلصاً لها، نقد كان تأثيرها على مالينوفسكى مؤقتا وزائلا، وبالفعل فقد كان هناك فجوة هائلة تفصل بين الأفكار الفرنسية والمخطط الذى قدمه مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية[1]. إذ لم يتوافق تصور مالينوفسكى للبحث الأنثروبولوجى مع النموذج الاستقرائى الذى قدمه دوركايم لعلم الاجتماع فقد كانت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تمثل بالنسبة لمالينوفسكى شكلاً من أشكال الثقافة الغربية حين تتصدى لفهم الثقافات الأخرى، ولقد كانت المشكلة الجوهرية عند مالينوفسكى هى المشكلة التى تواجه الباحث الميدانى وهى كيف يفسر الباحث الأنثروبولوجى الغربى مختلف الأنماط السلوكية التى تصادفه فى البيئات الثقافية (الأجنبية) التى يتخذها الباحثون الأنثروبولوجيون عادة ميداناً لأبحاثهم؟ وقد كانت إجابته تنص على أنه لا يمكن فهم الحقائق الثقافية النوعية إلا باختبارها فى سياقاتها الاجتماعية، وعلى ذلك فبمجرد أن يقوم الباحث الميدانى بنفسه بفهم السياق الاجتماعى فهماً تاماً سوف يتمكن من فهم الحقائق الثقافية النوعية ذاتها. ولذلك افترض مالينوفسكى أن موضوع الأنثروبولوجيا

---

(1) Leach, E.; "The Epistemological background to Malinowski's empricism", In man & culture, op. cit., pp. 120 - 121.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماعية يتكون بما يقوم الباحث الميدانى بملاحظته بنفسه، وأقر صراحة عدم وجود أية مواد إثنوجرافية حقيقية خارج تصور الباحث الميدانى نفسه. فلم يكن موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية يهتم عنده بتفسير الواقع الموضوعى للظواهر الاجتماعية (كما نجد عند دوركايم) وإنما يهتم بفهم الواقع الوجدانى المتحقق للإنسان الفرد(*)، ولذلك لم ينظر لهذا الموضوع من "الخارج" بوصفه ظاهرة موضوعية، وإنما نظر إليه من "الداخل" على أنه النتيجة المباشرة لاهتمامات الأفراد، ولقد رأى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية بمعناها الدقيق تحتاج فى كل عطفة من عطفاتها إلى مساندة علم النفس(١).

ومن هنا رفض مالينوفسكى التعاليم السوسيولوجية التى قدمها دوركايم وجنح إلى علم النفس، ولذلك أقر فى مراجعته لكتاب دوركايم "الصور الأولية للحياة الدينية" Les formes Elementaires de la vie religieuse (١٩١٢) بعدم رضائه عن مفهوم "الروح الجمعية" وعده مفهوماً نظرياً عقيماً، وليس له فائدة فى حل مشكلة البحث الميدانى على الإطلاق، وهاجم أيضاً فكرة تشيىء المجتمع. وقرر - فى ضور نزعته العلمية (**) المناقضة للنزعة التنظيرية لدى دور كايم - اعتراضه على إصرار دوركايم على عدم التجاء التفسير السوسيولوجى إلى نظريات علم النفس الفردى(٢).

(*) ينبغى هنا أن نميز بين مبدأ (التفسير) ومبدأ (الفهم) فمن المعلوم أن "التفسير" يتصل بتعليل تتابع الوقائع والظواهر، أى أن التفسير يبحث "من الخارج" عن العلاقة بين الظواهر. على حين أن "الفهم" يتصل بإدراك معنى الظواهر "من الداخل" ولا يستطيع الإنسان أن يتخذ موقفا حياديا بالنسبة للظواهر الاجتماعية، فإنها ليست "أشياء" خارجية مستقلة، بل هى مرتبطة بالإنسان ومتعلقة بإرادته وعقله ونفسه.

(1) Leach, E.; Socil anthropology, Fontana masterguides, 1982. p. 29.

(**) لقد كان مالينوفسكى بحكم تدريبه الأولى فى العلوم البحتة ودراسته فى جامعة ليبزج Leipzig بألمانيا (قبل مجيئه إلى لندن) على يد عالم النفس التجريبى المشهور وليام فونت W. Woundt شديد الحساسية بالمنهج العلمى. انظر:
Lienhardt, G.; From study to field and back, TLS, London, 1985, p. 112.

(٢) هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة "عرض نقدى لتطور العلاقة فى بريطانيا"، مرجع سابق، ص١٥٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

حقا لقد رد علم النفس للمجتمع البدائى على يد مالينوفسكى إنسانيته وذلك من خلال نظرية سياق الحال إذ وضع لأول مرة دوافع وأفكار ولسان الرجل البدائى موضع الفهم والتحليل بدلا من موضع التفسير والتصنيف الذى اتخذته المرحله السابقة على مالينوفسكى.

والحقيقة أن مالينوفسكى قد تأثر بعدد كبير من المدارس السيكولوجية أثناء حياته، فقد انجذب أثناء تواجده فى جزر التروبرياند إلى التحليل النفسى Psycho analysis الذى يضع تأكيداً ثقيلاً على القدرات الموروثة لدى الإنسان، ولقد نشر العديد من الدراسات حول أهالى جزر التروبرياند من هذا المنظور(*)، وتعرف على كتاب شاند A. Shand "أسس الشخصية" Foundation of character (١٩١٤م) بينما كان فى جزر التروبرياند أيضاً، ووفقاً لشاند كانت الميول العاطفية تمثل العوامل الرئيسية المؤثرة فى الشخصية الإنسانية، وفى الإدراك والفكر والإرادة، ولقد قبل مالينوفسكى فيما بعد أفكار وليام ماكدوجال W. McDougall (١٨٧١ - ١٩٣٩م) المتعلقة بالأساس الغريزى للسلوك الإنسانى، وكتب مراجعة مشهورة لكتاب "عقل الجماعة" The group mind (١٩٢١م)(١).

(*) من هذه الدراسات:

1. "The psychology of sex" (1923).
2. "Psych - analysis and anthropology" (1924).
3. "The father in primitive psychology" (1927).
4. "The sexual life of savages" (1929).

انظر: Metraux, R.; "B. K. Malinowski", In international encyclopedia of the social sciences, 1968, vol. 9, pp. 541 - 547.

(1) Hatch, E.; Theories of man & culture, op. cit., p. 274.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوظيفية السيكوبيولوجية مقابل الوظيفية السوسيولوجية:

الواقع أن الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى قد قاومت الوظيفية السوسيولوجية عند دوركايم وذلك لأنها شيئت الظواهر الاجتماعية(*) حين افترضت أن لها وجوداً مستقلاً عن كل عضو من أعضاء المجتمع. ولم يكن المجتمع فى رأى مالينوفسكى يوجد من حيث كونه شيئاً يمكن أن يتواصل فى الوجود بذاته وفى ذاته وإنما يوجد فقط بالقدر الذى تحقق له الأفراد رؤية خاصة للحقيقة، لقد حاول مالينوفسكى أن يعيد للفرد مكانه الصحيح كموضوع للتخصص فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على اعتبار أن الفرد هو مبتكر أو صانع العالم الإنسانى من حوله وليس للمجتمع من واقع سوى الواقع الإنسانى، وهو أمر تطلب من مالينوفسكى إعادة النظر فى تلك المفاهيم التى قدمها دور كايم لعلم الاجتماع الفرنسى وصياغتها صياغة علمية دقيقة.

فى رأى دور كايم هناك صدع أساسى بين المظاهر الجسمية والاجتماعية للشخصية الإنسانية، فلقد اعتقد دور كايم أن الطبيعة الإنسانية ما هى إلا نتاج للمحيط الجمعى الذى نشأت فيه، وأن التمثيلات الجمعية (الثقافة) التى يكتسبها الإنسان فى المجتمع هى التى تجبره وتحتم عليه تجاوز طبيعته الحيوانية، وفى رأيه لو امتثل الفرد لرغباته واهتماماته الفردية الخاصة سيكون من المستحيل إقامة المجتمع، لأن المصالح الذاتية المتحررة من القيود سوف تؤدى إلى نشوب حرب بين أفراد المجتمع، ولذلك كان على الناس الامتثال العاطفى للحياة الجمعية لمجتمعهم، فهذا الالتزام العاطفى من القوة بما يكفى لإجبار الأفراد على السمو فوق طبيعتهم الحيوانية(١).

(*) إن الاستعمال الكانطى الثنائى لفكرة الظواهر يمكن أن يقيم مقارنة بين مفهوم دور كايم ومالينوفسكى للظواهر الاجتماعية. حيث أن تصوراتنا للأشياء حسب ما يقول كانط Immanuel Kant إما تصورات ترتبط بالأشياء على العموم Choses en general، وإما تتعلق تصوراتنا للأشياء كما هى فى ذاتها Choses en soi. انظر: قبارى محمد اسماعيل، علم الاجتماع الفرنسى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية، ١٩٧١، ط١، ص٤١٤.

(1) Hatch, E.; Theories of man & culture, op. cit., p. 172.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أما مالينوفسكى فقد تمسك بتفسير النظم الاجتماعية والأعراف بالإشارة إلى الطبيعة الفطرية للإنسان وفى ضوء تعيين الدوافع السيكولوجية التى تكمن فيها.

لقد كانت الأفكار الدوركايمية حول الامتثال أو الحتمية السوسيولوجية - من وجهة نظر مالينوفسكى - تؤدى إلى سوء فهم كامل لما يلاحظه الباحث الأنثروبولوجى فى المجتمع البدائى، فالالتزام الذى يعبر الناس عنه ويروونه للباحث ما هو إلا مظهر كاذب يخفى وراءه الدوافع والأحاسيس الفعلية أو الحقيقية وإذا لم يتطلع الملاحظ الأنثروبولوجى إلى الأساليب التى يستخدم الناس بها النظم الاجتماعية أو الأعراف لتحقيق أغراضهم، والأساليب التى يتملصون بها من القواعد العرفية حين تتاح الفرصة لهم فلسوف يقع فى خطأ الجوهر. فمن وجهة نظر مالينوفسكى كانت التحليلات السوسيولوجية (مثل تحليل دوركايم وراد كليف براون) تقدم هيئة الحياة الاجتماعية الخارجية دون معناها الداخلى الحقيقى[١].

ولإيضاح هذ الفرضية كتب مالينوفسكى:

> "الباحث الأنثروبولوجى الميدانى الذى يعتمد بشكل كامل على منهج السؤال والإجابة سوف يحصل على أفضل تقدير على هذا التجسيد الميت للقوانين والأعراف الأخلاقية والقواعد الاصطلاحية التى يجب طاعتها، هذا مع أنه فى الحياة الفعلية لا يتم الامتثال للقواعد المثالية برمتها، وهذا يتطلب من الباحث الأنثروبولوجى أن يتحقق بالتجربة من نطاق الانحرافات عن هذه القواعد المثالية وآلياتها، وهذا الجزء هو الأكثر مشقة من العمل الأثنوجرافى الميدانى، ولكنه الجزء الأهم منه"[٢].

لقد كانت المُثل الاجتماعية من وجهة نظر دوركايم وراد كليف براون غريبة أو متعارضة باستمرار مع الاهتمامات المتغيرة للفرد، ومن ثم فقد كان استمرار هذه المثل فى حاجة مستمرة إلى تقديم الجزاءات الاجتماعية، ولقد اهتدى مالينوفسكى مثلهما إلى تأكيد أهمية القسر الاجتماعى ومع ذلك فلقد كانت رؤيته للقسر الاجتماعى تختلف عن رؤيتهما، لأنه رأى أن الثقافة تقود الفرد إلى تحديد رغباته، والمشاركة فى

---

(1) Ibid, p. 174.
(2) Ibid, p. 270.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النشاطات التى قد يتجنبها متى كان ذلك ممكنا فلقد كانت قواعد المجتمع التروبرياندى وقوانينه تطالب الفرد أن يمتنع عن إشباع جانب من حاجاته الفورية الملحة، ولقد كانت الرغبة فى الحصول على التقدير الواقعى والهيبة (أو تجنب الخزى والإذلال) هو الذى يدفع الرجل التروبرياندى لكى يكبح دوافعه الفردية وأن يسمو على مصالحه الفورية، فالرجل التروبرياندى قد يرغب فى الاحتفاظ بمحصول اليام Yam(*) لاستخدامه الشخصى، أو قد يرغب فى تخفيض إنتاجه، ومع ذلك فإن إقدامه على ذلك قد يجلب عليه الخزى وفقدان الاحترام، وقد يرغب فى عدم الوفاء بالتزاماته نحو أقربائه وأصدقائه وزعمائه، ولكن إقدامه على ذلك سينتج عنه تكلفة نهائية باهظة، فالثقافة تقدم القسر ولكنه ليس قسر السلطة الأخلاقية المفروضة من الخارج بالمعنى الدوركايمى، وإنما هو قسر الدوافع الداخلية للفرد(١).

لقد نقل راد كليف براون قضية القسر الاجتماعى من مستوى الفرد إلى مستوى البناء الاجتماعى، وبالنسبة إليه لا يمكن فهم الأعراف التشريعية والآليات القانونية سوى بالإحالة إلى هذا الكل الاجتماعى الأكبر، فحاجة هذا الكل الاجتماعى إلى الثبات والتماسك هو الذى يحدد المبادىء البنائية التى تحكم القسر الاجتماعى فى المجتمع بشكل عام، ولذلك فقد كان يجب فهم المعايير التشريعية الحيوية لبقاء العلاقات بين الأقسام المهمة فى المجتمع - فى رأى راد كليف براون - بالإحالة إلى الدور البنائى الذى تقوم به فى النسق الكلى للمجتمع، ولذلك فلقد كانت أية معالجة ترجع إلى تلك

(*) اليام (Yam): نبات جذرى من نوع البطاطا يؤكل بعد طبخه. يزرع فى المناطق المعتدلة والاستوائية كافة. وهو يكون الغذاء الرئيسى فى مناطق شاسعة من (الهند)، وجنوبى شرقى (أسيا) و(جزر المحيط الهادى)، و(جزر الهند الغربية). يختلف حجمه. فمنه الكبير الذى يصل وزن الثمرة منه إلى مائة رطل ومنه الذى تكون ثماره بحجم ثمرة البطاطا. وينبت (اليام) فى بعض المناطق بصورة برية، فيجمعه ويأكله بعض جامعى الغذاء. انظر: لوسى مير، مقدمة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص٤٤٩.

(1) Ibid, p. 271.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المعايير فى علاقاتها بالفرد دون المجتمع هى معالجة غير مكتملة فى رأيه[١].

وبطبيعة الحال لم ينكر راد كليف براون أى مظاهر تشريعية يمكن أن تفسر بالإحالة إلى الفرد، فقد كان الأفراد فى جميع المجتمعات يحاولون الدوران حول القواعد والتلاعب بها لمصالحهم أو لأغراضهم الخاصة، ومع ذلك فلم تكن هذه المظاهر - فى رأيه - سوى شوائب زائدة فى النسق، فيما عدا أن يقترب البناء الاجتماعى من الانهيار، هذا بالإضافة إلى أن القائم بهذا التلاعب أو فاعل المصلحة الذاتية لم يكن - فى رأى راد كليف براون - يمثل المفتاح الأساسى للطريق الذى يعمل به النسق الاجتماعى[٢].

أما بالنسبة لمالينوفسكى فلم يكن من الممكن فهم النسق الاجتماعى إلا على مستوى الفرد، فقط كانت حيل الفاعل وأغوارها وامتثاله للمصلحة الشخصية - فى رأيه - هو الذى يؤلف المبادىء الحيوية الحاكمة فى القانون والعرف والنسق الاجتماعى ككل، فلقد كانت الأعراف القانونية التى تحدد العلاقات بين الزعيم وأحد التبروبريانديين قد ترسخت فى الاهتمامات والاستعدادات المسبقة للكائنات الإنسانية الحية ولا تعكس المقتضيات الخارجية أو البنائية "المثالية" للكل الأكبر، فالرجل التروبرياندى يقبل دوره المرهق فى علاقته بالزعيم بسبب الامتيازات التى يتلقاها فى مقابل ذلك، ويفى الزعيم بالتزاماته تجاهه للسبب ذاته[٣].

لقد استعار مالينوفسكى مصطلح "الوظيفة" من الفكر الدوركايمى حيث ارتبطت وظيفة النظام الاجتماعى بنتيجة اجتماعية ما (المبدأ الراسخ تفسير الحقائق الاجتماعية بحقائق اجتماعية أخرى)[٤]، ولكن مالينوفسكى أدخل على تلك المعادلة الدوركايمية تعديلاً جوهرياً، فقد استبدل النتائج الاجتماعية التى أقرها دوركايم ومدرسة الحولية الفرنسية كوظائف للظواهر الاجتماعية المدروسة بنتائج أخرى بيولوجية، وافترض أن

---

(1) Ibid, p. 225.
(2) Ibid, p. 227.
(3) Ibid, p. 273.
(4) Leach, E.; "The Epistemological background of Malinowski's Empricism", op. cit., p. 123.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الوظيفة الأولى للظواهر الاجتماعية هى إشباع الحاجات البيولوجية الأساسية للأفراد، وأصر على ضرورة تحليل الظواهر الاجتماعية فى ضوء الفوائد التى تحققها فى خدمة الحاجات النفعية للأفراد بوضعهم كذلك[١].

كان هذا البرنامج السيكوبيولوجى الذى قدمه مالينوفسكى للأنثروبولوجيا الاجتماعية لا يعود فى الواقع إلى كراهيته للتفسيرات السوسيولوجية أو إلى تأثره المبكر بعلم النفس التجريبى فى شكله الألمانى فقط، وإنما يعود أيضاً إلى إعجابه الشديد بالمنهج البرجماتى، وبالأخص كما قدمه وليام جيمس W. James (١٨٤٢ - ١٩١٠م) وهو الفيلسوف البرجماتى الذى كانت لأفكاره بالتحديد التأثير الأقوى على مالينوفسكى، فالمعروف أن جيمس كان عالما بارزا فى علم النفس التجريبى (الأمريكى) قبل أن يلتحق بالفلسفة البرجماتية وقد كان مفهوم العقل عنده مفهوما تراكميا يهتم بالعمليات العقلية وليس مفهوما بنائيا يهتم ببحث العناصر العقلية (كما كان الأمر بين العلماء الألمان الذين درس عليهم مالينوفسكى أول الأمر)، وقد كانت نظرته الفلسفية للحقيقة نظرة "سياقية" تهتم بفحص الأفكار أو المعتقدات داخل سياق سيرة حياة الفرد، فقد كان الاختيار النهائى لشرعية الأفكار أو المعتقدات عند جيمس يكمن فى توافق هذه الأفكار أو المعتقدات مع بقية سيرة حياة الفرد، وقد كانت نزعته السيكولوجية فى الفلسفة تقوم على مفهومى الارتباط Relevance والاقتران، وكانت منفعة الوعى هى القضية الأساسية فى كل أبحاثه الفلسفية[٢].

وقد وجد مالينوفسكى فى النزعة البرجماتية لوليام جيمس W. James تجسيداً للنظرية التى يبحث عنها. ففى الفترة التى وفد فيها مالينوفسكى إلى إنجلترا للمرة الأولى لدراسة علم الاجتماع على يد ادفارد وسترمارك E. Westermarck (١٨٦٢ - ١٩٣٩م) وهوبهاوس Hobhouse (١٨٦٤ - ١٩٢٩م) كانت الفلسفة البرجماتية فى أشد رواجها، وقد كان مالينوفسكى أكثر استعداداً لتلقى مثل هذه الأفكار. فقد كانت النزعة البرجماتية عند جيمس قانوناً للإيمان المسيحى أكثر من كونها فلسفة، إنها

---

(1) Ibid, p. 124.
(2) Phelan, W. D.; "William James", In international encyclopedia of social science, 1968, vol. 8, pp. 227 - 233.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المرشد العملى للسلوك القديم. وقد كانت النزعة البرجماتية عند مالينوفسكى هى ذاتها عند جيمس، وفى الحقيقة لقد اشترك الاثنان فى كثير من الأفكار[١].

لقد لخص جالى W. B. Gallie (١٩١٢ – ١٩٩٨م) فى عام ١٩٥٢ موقف جيمس على النحو التالى:

"من الفرضيات القابلة للتصديق تلك الفرضية التى تقول: إن الاهتمامات البيولوجية الثابتة للكائن الإنسانى تكمن فى تفكيره، أو أنها هى التى تقدم الظروف المهمة للتفكير، ولكن جيمس تخطى هذه الفرضية إلى فرضية أكثر إثارة وغرابة حين قال صراحة: إن الوظيفة الفريدة للتفكير هى تحديد الاهتمامات البيولوجية للكائن الإنسانى".

وإذا استبدلنا كلمتى "فكر" و"تفكير" فى هذه الفقرة بكلمة "سلوك" فسوف نحصل على جوهر النزعة البرجماتية عند مالينوفسكى. ويكشف جالى أيضا عن وجه الاختلاف بين المدخل الفلسفى عند جيمس ومثيله عند بيرس Pirce فى الفقرة التالية:

"أما بيرس ... فتمثل المثل العليا والتصورات، والنشاطات الفكرية والعاطفية والمعارف التقليدية والرموز الحقيقة عنده، بقدر تطبيق الأفراد عمليا لها، أو بالأحرى وفقاً للضرورات الفردية (الأفعال وردود الأفعال) التى يطبقونها فيها"[٢].

هذا التضاد الذى صوره جالى بين مدخلى جيمس وبيرس يوازى بشكل دقيق التضاد الماثل بين النزعة السلوكية البرجماتية والوظيفية عند مالينوفسكى ومثيله عند دوركايم ومدرسة الحولية الفرنسية، ولب هذا التماثل يتمثل فى أن مالينوفسكى – مثله مثل جيمس – كان يشك فى أى "تجريد"، ولذلك فقد رفض مالينوفسكى المعرفة التأملية ولم يعترف بأية فكرة لا تشير إلى الخبرة المباشرة. والنتيجة هى ظهور عالم تجريبى متعصب جداً، لا يعترف سوى بالملاحظة الشخصية المباشرة، فواجب الباحث الميدانى ليس مجرد تأكيد الحقائق الاجتماعية الصريحة من "خارج" وإنما هو تفسير الأفكار

---

(1) Leach, E.; "The Epistemological background of malinowski's empricism', op. cit., p. 121.
(2) Ibid, p. 121 - 122.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والدوافع والمشاعر وردود الأفعال العاطفية والرغبات المكبوتة لأعضاء المجتمع المدروس من "الداخل"، ولقد كان مالينوفسكى مثل جيمس متأثرا بأفكار علم النفس (العلم الذى يميل باستمرار إلى تفسير الأفكار والدوافع والمشاعر الخاصة بالراشدين فى ضوء الخبرات المبكرة لمرحلة الطفولة)، ولذلك فقد أظهر عدم احترامه للنظريات التاريخية، وكان الماضى الحقيقى - فى رأيه - هو الماضى الحاضر، ولذلك لم يعترف بإمكانية فهم الحقائق الاجتماعية سوى بمقياس سيرة حياة الفرد. وعلى هذا الأساس تبلور موقفة من الحاضر الأثنوجرافى ومدخله "السياقى" فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية على حد سواء[1].

(1) Ibid, p. 122.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الثالث

نظرية الثقافة عند مالينوفسكى

- تمهيد.

أولاً: الثقافة واحتياجات الإنسان البيولوجية.

ثانياً: الرواسب الثقافية بين تايلور ومالينوفسكى.

ثالثاً: رفض منهج التأويل التاريخى.

رابعاً: المنظور الوظيفى التزامنى للثقافة.

خامساً: الخصائص الأساسية للثقافة ودعائمها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تمهيد:

لقد شاهدنا فى الفصل السابق كيف رفض مالينوفسكى الافتراضات المنطقية التى قدمها دوركايم لعلم الاجتماع وبشكل أخص افتراضه المتعلق بالطبيعة الثنائية للطبيعة الإنسانية، والتى شدد دوركايم فيها على أن "الفرد يطيع أوامر جماعته، وتقاليدها، ورأيها العام، وقوانينها بطريقة سلبية"(١)، وأكد فى مقابل ذلك على "قدرة الإنسان على المناورة وإعادة ترتيب بيئته"، حيث لم يكن الأفراد يمثلون - فى رأى مالينوفسكى - آلات أتوماتيكية مبرمجة بواسطة المجتمع، وإنما هم منخرطون بشكل نشط فى قواعد مناوراتية(٢).

ويرى مالينوفسكى أن الإنسان محكوم فى إنجاز مصالحه الاجتماعية بالميول العاطفية وليس بالعقل، ولذلك مال إلى إخضاع عقل الإنسان لعواطفه بوصفه أداة لها. وهذا التأكيد على العواطف واضح تماما فى تحليله لثقافة أهالى جزر التروبرياند، فقد كان للاتجاهات العاطفية بينهم نفوذاً على الأعراف السائدة أكثر مما لعقولهم عليها(٣).

وقد قدم مالينوفسكى العديد من الإيضاحات لتوكيد هذه الفكرة، ومن هذه الإيضاحات ما يتعلق بالخلود أو الاعتقاد فى الحياة الأخرى بعد الموت، فقد كان التروبرياندیون يشعرون بالأسى ويفزعون من مشهد الموت، وكانوا يفضلون إرجاء تلك النهاية بقدر الإمكان، ومن ثم فقد كان الاعتقاد فى الخلود يمنحهم الإحساس بالارتياح فى مواجهة مثل هذا الخواء المفزع، ويساعدهم على تجاوز المخاوف المرعبة من الفنائية Mortality، فلقد كانت فكرة الخلود البدائى تساعد الفرد على تجاوز الاختفاء المنظور للشخصية أو التحلل الشنيع للجثمان، فالاعتقاد فى الخلود بين البدائيين لم يكن يعبر عن العمليات العقلانية (كما شرح تايلور المعتقدات ذاتها) وإنما

---

(١) مجموعة من الكتاب، نظرية الثقافة، ترجمة على سيد الصاوى، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٣، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧، ص٢٩١.

(٢) نفس المرجع، ٢٩١.

(3) Hatch, E.; Theories of man & culture, op. cit., p. 266.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كان يعبر عن الحقيقة العاطفية الأعمق للطبيعة البشرية (وهى الرغبة فى الحياة بعد الموت) إنه يعبر باختصار عن الجوهر الخالص الذى صنعت منه الروح الإنسانية(١).

وسوف يتناول الباحث فى هذا الفصل رؤية مالينوفسكى "للثقافة" من المنظور السيكوبيولوجى اللاتاريخى وذلك فى ضوء:

أولاً: الثقافة واحتياجات الإنسان البيولوجية.

ثانياً: الرواسب الثقافية بين تايلور ومالينوفسكى.

ثالثاً: رفض منهج التأويل التاريخى.

رابعاً: المنظور الوظيفى التزامنى للثقافة.

خامساً: الخصائص الأساسية للثقافة ودعائمها.

سادساً: السياق الثقافى والنص الإثنوجرافى.

أولاً: الثقافة واحتياجات الإنسان البيولوجية:

لقد بدأ مالينوفسكى تحليله السيكوبيولوجى للثقافة بتفسير الدور الذى تقوم به فى إشباع الحاجات البيولوجية، فبالنسبة إليه تنشأ ثقافة أى مجتمع وتتطور فى إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتى حصرها فى التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد مثلاً أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يمكنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدنى والنفسى. ولكى تستمر الثقافة فى أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية، فمن الضرورى إذن - فى رأى مالينوفسكى - أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب مثلاً. ولابد أيضا من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة وتطبيق أحكام الضبط الاجتماعى، علاوة

---

(١) برونيسلاف مالينوفسكى، السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية ومقالات أخرى، مرجع سابق، ص ٥٤ - ٥٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدى إلى نشأة تنظيم اجتماعى متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار. أما عن الفنون والرقص والشعائر الدينية، فتلك تمثل الجانب الروحى والرمزى الذى تستمد منه النظم الأخرى تكوينهما وفاعليتهما، وفى إطار هذا التنظيم المادى والروحى يذكر مالينوفسكى: أنه يمكن للأفراد أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوبا معينا للحياة، يضمن لهم إشباع حاجاتهم البيولوجية الأساسية(١).

وبذلك كانت الاحتياجات البيولوجية فى رأى مالينوفسكى هى القوى الأساسية الكامنة وراء الظواهر الثقافية. وهو يتكلم بشكل أكثر تحديداً عن "الاحتياجات الثقافية" للبقاء الإنسانى(*) ويشرح هذه الفكرة قائلاً:

> "إن الاحتياج الثقافى هو مجموعة كبيرة من الظروف التى يجب إشباعها إذا ما أريد للمجتمع أن يبقى ولثقافته أن تستمر". ويتم إشباع الاحتياجات عن طريق "الاستجابات الثقافية". على الرغم من أنه يقر "بعدم وجود التطابق الكامل بين الاحتياجات البيولوجية والاستجابة التى تتخذ شكلاً منظماً اجتماعياً". وهناك "احتياجات أساسية" و"احتياجات ثانوية". الأولى احتياجات بيولوجية (كالتكاثر، والقرابة هى استجابته الثقافية)، والثانية مستمدة من الثقافة ذاتها (مثل حاجة السلوك البشرى إلى التنظيم والجزاء، واستجابته هى الضبط الاجتماعى) ويطلق على القوة الإيجابية للاحتياجات الثانوية - التى تخلق الاستجابات - "الدوافع الثقافية" أو "الدوافع الفعالة للثقافة".

ويحرص مالينوفسكى على أن يوضح أن المؤلفات الإثنولوجية والأنثروبولوجية تخلط بين الاحتياجات الثقافية "التى تعبر عن نفسها فى المخططات أو الجوانب العريضة فى التنظيم الاجتماعى"، وبين الدوافع الشعورية "التى توجد كحقيقة

---

(١) حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٩٨، ١٩٨٦، ص١٦٦.

(*) فعلى خلاف داروين الذى اعتقد أن البقاء للأصلح هو المبدأ الأساسى الحاكم للبقاء الإنسانى، اعتقد مالينوفسكى أن الثقافة (بما تقوم به من دور فى إشباع الحاجات البيولوجية للإنسان) هى المبدأ الأساسى للبقاء الإنسانى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سيكولوجية فى عقل عضو المجتمع"[١].

هكذا حاول مالينوفسكى أن يضع جدولاً ذا شقين أحدهما للحاجات والثانى للاستجابات الثقافية بحيث تقابل كل حاجة استجابة معينة تتواءم معها. فالغذاء، والتكاثر، والراحة الجسدية، والأمان، والتسلية والحركة، والنمو كلها حاجات يمكن النظر إليها باعتبارها أوامر ثقافية تعمل على تسليح الإنسان بوسائل حمايته وتدعيم بقائه، وكلما كانت الحاجات الإنسانية متسلسلة وواضحة، كانت الاستجابات الثقافية عوامل تدعيم واستقرار وتقدم للبناء الاجتماعى. فنظام المؤن، ونظام القرابة، ونظام الإيواء، ونظام الدفاع والحماية، ونظام الترويح، ونظام الاتصال، ونظام التدريب، هى استجابات ثقافية لمواجهة الحاجات الإنسانية الأساسية التى ذكرناها[٢].

ويمكن توضيح ما سبق من خلال الجدول التالى:

الحاجات البيولوجية الأساسية الفردية	الاستجابات الثقافية
التغذية	نظام التزويد بالمؤن (النظام الاقتصادى)
التكاثر أو الإنجاب	النظام القرابى والتربية
الراحة البدنية	نظام الإيواء
الأمان	نظام الدفاع والحماية (النظام السياسى)
التسلية أو الاستجمام	نظام الترويح
الحركة	نظام الاتصال والأنشطة
النمو والتطور	نظام التدريب
الصحة	نظام العادات الصحية

(١) إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهرى وحسن الشامى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٤.

(2) Malinowski, B.; Ascientific theory of culture and other essays, the university of North Carolina Press, 1944, pp. 89 - 90.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لقد رأى مالينوفسكى أن الاستجابات الثقافية للحاجات البيولوجية الضرورية هى التى فرضت على الإنسان عدداً من الضروروات الناتجة عن هذه الاحتياجات الضرورية التى من أهمها:

أولاً: نتيجة للحاجة الضرورية للغذاء ظهرت استجابات ثقافية تتمثل فى الحصول على الغذاء والذى يعرف بالتنظيم الاقتصادى أياً كان هذا التنظيم ساذجاً غير معقد أو معقداً أو شاملاً لعدد من القواعد المنظمة للنشاط الاقتصادى والمتمثلة فى صنع الآلات والأدوات اللازمة لإنتاج الغذاء واستخدامها لأغراض أخرى مختلفة، إلى جانب ظواهر أخرى مصاحبة مثل ملكية الأرض وتقسيماتها وتوزيع الثروة بين أفراد المجتمع وتقسيم العمل وما إلى ذلك.

ثانياً: تظهر الضرورة الثانية (وهى ضرورة معيارية أى ثقافية) استجابة للاحتياج لتفسير الثقافة ذاتها بقصد الوصول إلى الوظيفة الأساسية للثقافة البشرية المتمثلة فى عمليات التعاون والحياة المشتركة مع ما يتطلبه ذلك من مظاهر العمل المشترك بين أفراد المجتمع من أجل المصلحة العامة، وتظهر بفعل ذلك قواعد اجتماعية معينة.

ثالثاً: التنظيم السياسى الذى يحدد السلطات فى أى مجتمع، ويرتبط فى معظم المجتمعات بالتسلط والقهر، ويرمى إلى تنظيم العلاقات بين أفراد المجتمع فيما بينهم، وينظم علاقاتهم بغيرهم من المجتمعات، ويوفر لهم الحماية ضد الاعتداءات التى قد تقع عليهم من الخارج.

رابعاً: الضرورة التى تمثلها الطرق والوسائل التى ينتقل بها التراث الاجتماعى الثقافى من جيل إلى جيل، أى التربية المسئولة عن إعداد أفراد المجتمع تربوياً وتزويدهم بالمعارف اللازمة التى تؤهلهم للقيام بأدوارهم المحددة فى المجتمع، وهى تمثل القوانين المنظمة للسلوك الإنسانى فى جميع جوانبه.

هذه الضرورات الثقافية Cultural Imperatives يسميها مالينوفسكى الحاجات المشتقة Derived Needs، وهى ضرورات يفرضها الإنسان على ذاته من خلال رغبته فى زيادة أمنه وتعزيز أوجه راحته، واقتحام آفاق للحركة، وزيادة سرعة إنجازاته، وإعداد الآلات اللازمة للإنتاج والحرب، وللدفاع والهجوم. ومعنى ذلك أن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثمة نماذج جديدة للسلوك لابد من وجودها فى كل الاستجابات الثقافية، فمثلاً لكى ينتج الإنسان يتعين عليه أن يتعاون اقتصادياً مع غيره، ويتعلم طرق وأساليب إنجاز عملـه الإنتاجى. وليس الإنسان محتاجاً - احتياجاً بيولوجياً - إلى أن يصيد بالرماح والسهام أو النبل، أو يستخدم المدافع أو البنادق أو القنابل للدفاع عن نفسه. لكن منـذ اللحظـة التى يتبنى فيها مثل هذه الأساليب أو الممارسات لتحقيق التوافق البشرى مـع البيئـة، تصبح هذه الأشياء شروطاً ضرورية للبقاء. وهنا يصبح الاعتماد الإنسـانى Human Dependence هائلاً كالاعتماد البيولوجى تماماً، وتصل الحاجة الثقافية المشتقة إلـى مرتبة الحاجة البيولوجية الأساسية من حيث أهميتها للإنسان.

ويؤكد مالينوفسكى علـى الأسـس البيولوجيـة التـى تقـوم عليهـا النظريـة الأنثروبولوجية ذلك أن البشر فى كل زمـان ومكـان علـيهم أن يشـبعوا حاجـاتهم الضرورية التى تساعدهم على البقـاء، أى أن علـى البشـر أن يشـبعوا حاجـاتهم الضرورية من غذاء وهواء، وعليهم أن يتناسلوا، وأن يزودوا أنفسهم بالراحة والصحة والأمن وغيرها من الحاجات الضرورية التى تحفظ للنوع البشرى البقاء والاسـتمرار، وليس الإنسان مثل بقية الحيوانات فهو وإن كان يشاركها فى العيش بناء على الـدوافع الجسمية، لكنه يختلف عنها فى حاجته الضرورية إلى العيش بناء على الدوافع الثقافية، فقد ذهب مالينوفسكى إلى أنه رغم أن الثقافة قد تولدت عن إشباع الحاجات البيولوجية فإن من طبيعة هذه الثقافة، أن تجعل الإنسان يختلف تماماً عن كونه كائناً عضـوياً أو حيوانياً. فللإنسان رغباته ككائن رئيسى، بل أنه أرقى الرئيسيات وهو الحيوان الصانع للآلات وهو العضو الاجتماعى الذى يشارك فى جماعة ويحاول الإبقاء علـى سـماته الثقافية واستمرار تقاليده. فالإنسان حيوان له ثقافته، حيث أنه يتميز بتاريخ وحضـارة وتراث متراكم، أما الحيوان فلا ثقافة له[1].

من هذا المنظور يقرر مالينوفسكى أن "الثقافة تشتمل على الصناعات المتوارثـة، والبضائع (السلع) والعمليات الفنية، والأفكار والعادات والقيم" وأيضاً يقرر أن التنظـيم

---

(1) URL:http:/www.arkamani.org/vol_2/anthropology_files_2/theory_in_anthropology_6.htm 10/05/2005

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الاجتماعى لا يمكن أن يفهم إلا كجزء من الثقافة". ولذلك فإن تعريف مالينوفسكى يماثل تقريباً تعريف تايلور الذى قرر أن الثقافة هى "ذلك الكل المعقد الذى يحتوى المعرفة والمعتقدات والفن، والقانون والأخلاق والأعراف، وكل القدرات والعادات التى يكتسبها الإنسان كعضو فى المجتمع"(١).

إذن الثقافة عند مالينوفسكى تعد الميراث الاجتماعى الذى يشتمل على العناصر المادية مثل السلع، والعمليات التقنية، والعناصر غير المادية مثل الأفكار والعادات الفردية والقيم. بل إنه يذهب إلى أبعد من هذا فيقدم تفسيراً لجوهرها ووظيفتها فالثقافة: تسبغ على الإنسان امتداداً إضافياً لجهازه العضوى وهى تولد أساساً من خلال إشباع الاحتياجات البيولوجية. وهكذا تظهر الثقافة أول ما تظهر وبصفة رئيسية على أنها "واقع عريض من الوسائل، فهى مجموع أدوات العمل والسلع، ومواثيق التنظيم الاجتماعى، والأفكار، والعادات، والمعتقدات والقيم وجميعها تتيح للإنسان إشباع احتياجاته البيولوجية من خلال التعاون وفى داخل بيئة أُعيد تنظيمها وتكييفها". فالثقافة فى جوهرها عبارة عن مجموعة من الوسائل التى يصبح الإنسان بفضلها فى موقف أفضل لمجابهة المشاكل القائمة المعينة التى يقابلها فى بيئته خلال إشباعه لاحتياجاته، فهى وسيلة لإشباع الاحتياجات الأساسية، وهى "البقاء العضوى، والتكيف البيئى والاستمرار بمعناه البيولوجى". وبالإضافة إلى ذلك فإن مالينوفسكى يرى أن الثقافة أو الجهاز الثقافى "يعمل إلى حد كبير فى نفس الاتجاه الذى تسلكه الغرائز الطبيعية"، ويرى أنه يحقق نفس الأهداف - ألا وهى إشباع الاحتياجات البشرية - وذلك على الرغم من الاختلاف الكلى فى ميكانيزمات كل منهما(٢).

---

(1) Richards, A. I.; The concept of culture in malinowski work, In man and culture: by R. Firth, Routledge & Kegan Paul, London, 1970, p. 16.

(٢) إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الإثنولوجيا والفولكلور، مرجع سابق، ص١٤٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانياً: الرواسب الثقافية بين تايلور ومالينوفسكى:

كانت ثقافة الشعوب البدائية تصور على أنها تمثل راسباً من الماضى وقد كان ذلك هو أحد المسلمات الأساسية فى الأنثروبولوجيا التايلورية، بل ويمثل فى الوقت نفسه المسلمة الرئيسية التى أخذ مالينوفسكى العهد على نفسه للإطاحة بها(١).

وحين يستخدم مالينوفسكى كلمة "رواسب" أو "مخلفات" Survival فإنه يستعيرها فى شىء من التهكم والسخرية من كتابات تايلور نفسه التى تعد فى نظره من رواسب التفكير الأنثروبولوجى القديم.

والمقصود بالرواسب عند تايلور هو "التصرفات والأعراف والآراء وما إليها من الأشياء التى يظل الناس متمسكين بها بحكم العادة فقط، حتى بعد أن ينتقل المجتمع إلى حالة جديدة تختلف عن الحالة الأصلية التى نشأت هذه العمليات فيها".

فالرواسب إذن عند تايلور هى العناصر التى لم تتطور على الإطلاق، أو لم تتطور بنفس السرعة أو النسبة التى تطورت بها بقية العناصر مما يجعلها غير قادرة على مسايرة الظروف الجديدة(٢).

لقد ذهب مالينوفسكى إلى القول بأن هناك مسألة ارتكبت فيها مختلف المدارس خطأ فادحاً، وهى المفهوم القائم على وجود بقايا أو رواسب ثقافية تمارس دورها إلى حد معين وفى مواضع ذات استراتيجية هامة على الأفكار والمعتقدات والأنظمة والعادات التى لا تنتمى فى الحقيقة إلى مضمونها. ففى النظريات التطورية تظهر هذه البقايا على أنها قوى ثابتة وعند الانتشاريين تعد خصائص مستعارة أو خصائص مركبة. وقد ناقش مالينوفسكى تعريف جولدنفايزر Goldenweiser (١٨٨٠ - ١٩٤٠م) للبقايا أو الرواسب الثقافية حيث عدها مظهرا ثقافيا لم يستطع التكيف مع المحيط الثقافى القائم، كما رأى أن وظيفتها لم تعد تتواءم - إلى حد ما - مع الثقافة

---

(1) Leach, E.; The Epistemological Background to Malinowski's Epricism, op. cit., p. 125.

(٢) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى "مدخل لدراسة المجتمع"، ج١ المفهومات، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٢، ط٨، ص٢١٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المحيطة بها، الأمر الذى يدفع جولدنفايزر إلى القول بأن كل ثقافة تتضمن قدراً من البقايا الثقافية من ثقافات أخرى. ولكن مالينوفسكى رفض هذا التعميم قائلاً: "إننى أختلف مع هذا الرأى، وكان من الأفضل بحث الموضوع بالرجوع إلى ثقافتنا، فهذه تزودنا - بلا شك - بفرص أكثر لمشاهدة البقايا الثقافية نظراً للسرعة الهائلة فى التقدم الذى أحرزه عصرنا الحاضر، أكثر مما يمكن أن نجده فى أى مرحلة تاريخية أخرى[١].

وقد تساءل مالينوفسكى أين يمكن أن نجد صورا من هذه البقايا الثقافية؟، وقد أجاب بأنها ماثلة أمامنا فى إطار التقدم التكنولوجى الذى يحيط بنا فالمركبة الميكانيكية - مثلاً - قد حلت محل المركبة التى يجرها الحصان، وعربة الحصان أو العربة المغطاة التى تجرها الخيول لا تناسب شوارع نيويورك أو لندن لكن مازالت هذه البقايا موجودة بالفعل. فمثل هذه العربات تظهر فى أوقات معينة من النهار أو الليل وفى أماكن معينة أيضاً، فهل تعد من البقايا الثقافية؟ وقد أجاب على ذلك بالإيجاب والنفى فى ذات الوقت. فإذا كنا نعدها أفضل أو أرخص وسيلة للتنقل فإنها ستكون بالتأكيد مفارقة تاريخية وشكلاً من رواسب الماضى ومن الواضح أن وظيفتها قد تغيرت، ولكن هل فشلت وظيفتها فى التواؤم مع ظروف العصر الحاضر ؟ طبعاً لا، ولهذا فإن مثل هذه الوسيلة القديمة للتنقل تستعمل لاستعادة الماضى عاطفيا أو بمثابة "رحلة عبر الماضى" وقد يكون استخدامها قاصرا على الحالات التى يكون فيها المسافر منتشياً أو فى حالة من الرومانتيكية[٢].

ولهذا فإن البقايا الثقافية تستمر فى بقائها لأنها قد استمدت مفهوما جديدا ووظيفة جديدة، ولكن إذا ما اتخذنا موقفا أخلاقياً أو قيمياً محددا بدلاً من دراسة الظاهرة على حالتها التى تظهر أمامنا، فإننا سوف نعطى وصفاً خاطئاً لاستعمالاتها ودلالاتها فالأنواع القديمة من السيارات لا تستعمل فقط لأنها استطاعت أن تبقى، بل لأن أصحابها عاجزون عن شراء بديل حديث لها، فالوظيفة هنا اقتصادية تماما.

---

(1) Malinowski, B.; Ascientific theory of culture, op. cit., p. 28.
(2) Ibid, pp. 29 - 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وإذا انتقلنا إلى وسائل أو أنظمة أكثر أهمية وشيوعا نرى أن الموقد المفتوح لا يزال شائعاً فى إنجلترا وفى مواقع معينة من فرنسا بدلاً من التدفئة المركزية. فإذا أخذنا فى الاعتبار السياق الكامل للعادات والاتجاهات ووسائل الترويح فى الحياة الإنجليزية والتمسك بالدور الذى يمارسه البيت وتأثير تجمع الأسرة أمام النار الموقدة، علينا أن نقرر بكل بساطة بأن مثل هذا الموقد يؤدى دوراً محدداً داخل البيت الإنجليزى أو فى شقة من عمارة سكنية فى مدينة نيويورك.

لقد ذهب مالينوفسكى إلى القول بأن الضرر الحقيقى الذى يسببه مفهوم البقايا الثقافية فى الأنثروبولوجيا يأتى من حيث إنه يعمل كوسيلة منهجية زائفة فى تفسير السلسلة التطورية، من ناحية ويعمل كوسيلة فعالة فى إعاقة المشاهدة والملاحظة فى الدراسات الحقلية من ناحية أخرى. فإذا أخذنا مثلاً تصنيف مورجان لنظم القرابة - حيث ينظر إليها على أنها رواسب نجمت عن مرحلة تطورية سابقة - نجد أنه لم يربط بين طريقة تسمية الأقارب من جهة وبين تنظيم المؤسسة العائلية من جهة أخرى، فاستمرار أسلوب التسمية التصنيفى فى المرحلة التالية ليس نوعاً من البقايا الثقافية لأن البشر - فى عالم الواقع - لا يرتبطون ببعضهم أو بالعالم ككل بروابط القربى الصحيحة التى يرتبطون بها فعلاً. ففى كافة المجتمعات البسيطة كان الأقارب يصنفون بطريقة خاطئة أو على الأقل بصورة غير كافية، ولهذا بقى نظام التسمية القديم قائماً على الرغم من أن ظروفاً جديدة قد انبثقت بالفعل[1].

هذا المثال عن البقايا الثقافية يبين أولاً أنه لا يمكن الوصول إلى فهم واضح لوظيفة الثقافة ما دمنا مرتكزين على المفاهيم والنظريات الشائعة التى تحتاج إلى فحص وتدقيق قبل الاعتماد عليها بصورة مطلقة. هذا بالإضافة إلى ما يسببه ذلك من عقبات أمام الدراسة الحقلية المفصلة والدقيقة التى تهدف إلى ملاحظة كيف ترتبط عملية التسمية بغيرها من النشاطات والاهتمامات التى تشكل القرابة بين الآباء والأبناء، وبين الأخوة والأخوات، وبين الأقارب داخل العشيرة أو القبيلة الواحدة.

---

(1) Ibid, p. 30.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويلقى مالينوفسكى باللائمة على مفهوم البقايا الثقافية، ويعده السبب الذى أعاق فهم الأنثروبولوجيين للوظائف الحقيقية لأشكال الزواج المختلفة. ذلك لأن الرواسب المتبقية من مرحلة عفا عليها الزمن - على شاكلة الخطف أو الشراء - تظهر على أنها استمرار لأساليب قديمة معترف بها فى التعاقد الزواجى وقد تسبب هذا المفهوم فى تأخر فهمنا التدريجى للوظيفة الحقيقية لثمن العروس أو مهرها، وهو أنه لم يكن عملية تجارية على الإطلاق، وإنما وسيلة قانونية وقضائية لها وظائفها التى وإن بدت معقدة إلا أنها فى غاية الوضوح من حيث وظائفها الاقتصادية والقضائية والدينية(١).

لقد كان الضرر الحقيقى الذى سببه مفهوم البقايا الثقافية - فى رأى مالينوفسكى - هو تأخير العمل الميدانى الفعال. فبدلاً من البحث عن الوظيفة اليومية المباشرة لأية حقيقة ثقافية كان الملاحظ الميدانى يكتفى بالبحث عن الكليات الجامدة ولا يحاول ربط الظاهرة بوظائفها وأدوارها الفعلية(٢).

ثالثاً: رفض منهج التأويل التاريخى:

لقد ارتبط رفض مالينوفسكى لنظرية الرواسب الثقافية برفضه كذلك للاستعانة بالتاريخ لفهم وتأويل الظواهر الثقافية فى المجتمع البدائى، وكان يؤمن بعدم جدوى هذا المنظور، كما كان يصف منهجه بأنه منهج "لا تاريخى ولا انتشارى".

وربما كان السبب الأول الذى حدا بمالينوفسكى إلى أن يقف موقف العداء من التاريخ هو عدم وجود تاريخ مكتوب للمجتمعات البدائية التى كان المؤرخون المعاصرون له يركزون جهودهم على دراستها. ولكن الواقع أنه كان يذهب إلى القول بأنه حتى فى الحالات التى يكون للمجتمع فيها تاريخ معروف فإن الأولى بالعالم الأنثروبولوجى أن يتغاضى عن ذلك التاريخ، تمشياً مع المنهج العلمى الصحيح القائم على الملاحظة الشهودية التى تتطلب محاولة فهم الحياة الاجتماعية فى مجتمع معين بالذات، وفى فترة محددة هى التى تستغرقها الدراسة الحقلية. ولقد قدم مالينوفسكى

---

(1) Ibid, p. 30.
(2) Ibid, p.31.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عدداً من الإيضاحات لشرح هذه الفكرة، فعلماء التشريح مثلاً لا يهتمون بالبحث عن تاريخ الجسم البشرى بل عن العلاقات القائمة بين أجزائه، وعلماء الفلك لا يحاولون التعرف على تاريخ الكون أو نشأته أو نشأة الأفلاك، بل يهتمون أولا وأخيرا بالكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين الكواكب التى تدخل فى نظام واحد مثل نظام الكواكب السيارة، وهكذا.

وعلى ذلك فليس ثمة ما يدعو فى دراسة الثقافة إلى محاولة التعرف على نشأتها وتطورها، وإنما الأجدى هو تكريس الجهود لتحليل العلاقات التى تقوم بين الظواهر الثقافية التى تؤلف فى المجتمع وحدة متماسكة ومتكاملة. حتى حين يجد الباحث الأنثروبولوجى نفسه مضطراً إلى دراسة الظواهر التى كانت توجد فى الماضى - كما هو الحال فى دراسة التغير الاجتماعى أو الثقافى فى المجتمع - فإن ذلك لا يعد تاريخاً أو اعتماداً على منهج التأويل التاريخى بالمعنى الدقيق للكلمة. بل هو فى حقيقته مقارنة بين ثقافتين مختلفتين تسودان مجتمعين مختلفين فى فترتين زمانيتين مختلفتين.

فالواقع أن دراسة التغير الاجتماعى أو الثقافى لا تستلزم فى نظر مالينوفسكى تتبع الأحداث والظواهر الثقافية أو الاجتماعية عبر الزمن. بل إن كل ما يحتاج إليه الأمر فى ذلك هو أن يختار العالم الأنثروبولوجى لحظة معينة يسميها مالينوفسكى "نقطة الصفر Zero Point" وهى نقطة يفترض أن التغير فى الثقافة وفى المجتمع حدث عندها، ثم يقارن مالينوفسكى بين الأوضاع السائدة قبل هذه "النقطة" وبعدها. وفى ذلك كله يأخذ الحياة الاجتماعية فى كل حالة فردية على أنها تؤلف وحدة متكاملة لها كيان متماسك متمايز. وليس من شك فى أن الباحث الأنثروبولوجى يعتمد دائما أثناء دراسته الحقلية على ذكريات الشيوخ من أعضاء المجتمع الذى يدرسه ليعرف ملامح الثقافة، بل وأيضاً أنماط السلوك والنظم الاجتماعية التى كانت سائدة فى الماضى القريب كما يتذكرها الناس أو كما يتصور حدوثها، كذلك قد يعتمد على القصص والأساطير التى تحكى أحداثاً كثيرة حدثت فى الماضى البعيد. ولكن مالينوفسكى لا يعد ذلك أيضاً تاريخاً أو اتباعاً للمنهج التاريخى. وذلك لأن الذكريات الحية فى أذهان الناس، وكذلك القصص والأساطير، تؤلف فى نظره جزءاً من الحياة الاجتماعية والثقافية القائمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالفعل(*)، وأنه يجب على الباحث أن يعاملها على هذا الأساس ويضعها على مستوى واحد مع الظواهر التى يراها ويلمسها بنفسه فى الواقع الخارجى، أى يعدها جزءاً من النسق الثقافى العام، فلا يضطر لفصلها عنه كما يحدث فى الدراسات التاريخية(١).

وإذا كان عنصر الزمن لا يمكن إغفاله فى أى دراسة للنظم والأنساق الاجتماعية والثقافية، فإن رفض مالينوفسكى للتاريخ الظنى أو التخمينى ليس إهمالاً لتأثير الزمن، وإنما تعبيراً عن رغبته فى استخدام مقياس جديد لهذا العنصر الحيوى متخذاً من نقطة الصفر مقابلاً لما يعرف لدى الأخصائيين بالرقم القياسى الذى يعتبر أساساً لمعرفة التغير إن إيجاباً أو سلباً. ويؤكد مالينوفسكى على أن الثقافة يجب أن تدرس كما هى موجودة بالفعل وليس من الضرورى أن نبحث فى تاريخ نشأتها وتطورها.

رابعاً: المنظور الوظيفى التزامنى للثقافة:

انطلاقاً من فهم مالينوفسكى للحاضر الإثنوجرافى ودراسة التعاقبى فى سياق التزامنى قدم مفهومه الوظيفى لدراسة الثقافة، فلقد رأى أن الثقافة كيان كلى وظيفى متكامل يماثل الكائن الحى، بحيث أنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أى عضو من أعضائه إلا فى ضوء علاقته بباقى أعضاء الجسم.

ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوى للإنسان فإن دراسة الدور أو الوظيفة التى يؤديها كل عنصر ثقافى تمكن الباحث الإثنوجرافى من اكتشاف ماهيته وضرورته. فالعنصر الثقافى لا يمكن فهمه - فى نظر مالينوفسكى - عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره وإنما من خلال دراسة سياقه الثقافى التزامنى فى ضوء

(*) الجدير بالذكر أن مالينوفسكى قدم نظرية السياق لأنه لم يعتمد على الإخباريين (كبار السن) وإنما على الملاحظة بالمشاركة، والملاحظة فى نظره دون الاعتماد على السياق لا معنى لها.

(١) أحمد أبو زيد، البناء الاجتماعى، مرجع سابق، ص ٢١٠ - ٢١١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وظيفته الفعالة(*)، وفى إطار علاقته مع العناصر الأخرى. ويترتب على ذلك ضرورة دراسة ثقافات الشعوب، فى إطار وضعها الحالى لا كما كانت عليه أو كيف تغيرت. وبصفة عامة يمكن القول:

إن مالينوفسكى قد قدم مفهوم الوظيفة كأداة منهجية لتمكن الباحث الأنثروبولوجى من إجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة أثناء وصفه للثقافة البدائية. فمفهوم الوظيفة فى نظر مالينوفسكى يعنى الدور أو الإسهام الذى يقوم به كل نظام اجتماعى فى مجتمع ما، بسيطاً كان أو مركباً، إلا فى ضوء علاقة وظيفة (أو وظائف) هذا النظام مع وظيفة (أو وظائف) النظم الأخرى. ولهذا ينظر مالينوفسكى إلى مصطلح النظام الاجتماعى Social Institution كمفهوم أساسى فى تحليل الثقافة البدائية إلى عناصر جزئية تسهل معها الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التى تسير بها الأمور فى المجتمع، والتى تعمل على تماسكه واستمراره. فالنظام الاجتماعى فى نظر مالينوفسكى هو نسق منظم، وهادف لجهد وإنجاز إنسانى(١).

ويرى مالينوفسكى أن ثقافة أى مجتمع ينبغى أن تُدرس بشكل تزامنى مع وجود الباحث ووقت ملاحظة الباحث لذلك المجتمع. ويمكن أن نقدر المسافة المقطوعة منذ فريزر الذى كان مع ذلك أستاذاً لمالينوفسكى. فعندما كان يَسأل الأول لماذا لم يكن

(*) العصا - على سبيل المثال - لا يمكن أن تدرس بوصفها موضوعاً إثنوجرافيا إلا فى ضوء السياق الثقافى الذى يستخدمها وبذلك تكون عصا لعزق الأرض الزراعية، أو عصا لهش الأغنام أو عصا شعائرية، أو عصا ساحر، أو عصا يتوكأ المرء عليها أو حتى صولجاناً ملكياً. وكذلك فليس للكانو Canoe (وهو قارب طويل يعمل بالمجاديف الذراعية) أى معنى وهو معزولاً عن سياقه الثقافى، إلا حين نفهم من يقوم بقطع الشجرة التى سيتم تجويفها على هيئة قارب رفيع طويل، ومن يقوم بتجويف الشجرة أو بناء القارب، ومن يقوم بإنزاله إلى البحيرة لاستخدامه، واستخداماته الرئيسية فى الحياة المحلية، وعدد الأفراد الذين سيبحرون به.. وهكذا. انظر:

Mainowski, B.; Argonauts of the western pacific, (The Introduction).

(١) حسين فهيم، قصة الأنثروبولوجيا، مرجع سابق، ص ١٦٦ - ١٦٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يذهب بنفسه لملاحظة المجتمعات التى صاغ مؤلفه انطلاقاً منها كان يجيب "الله يحفظنا منها". ومع أن "الأرجونوتس فى المحيط الباسفيكى" قد نشر بعد سنوات لا أكثر من ظهور الغصن الذهبى - ولنلاحظ أن فريزر بنفسه كتب كلمة التقديم لكتاب مالينوفسكى الأرجونوتس - فإننا نجد أن مالينوفسكى يسير حسب منهج مخالف لفريزر حيث يقوم مالينوفسكى بدراسة تحليلية مكثفة مستمرة لمجتمع صغير بدون الرجوع إلى تاريخه، ففى حين كان فريزر يبحث عن الإجابة على السؤال: كيف وصل مجتمعنا إلى أن يصبح إلى ما هو عليه؟ ويجيب على ذلك بكتابه "المؤلف الملحمى للإنسانية" وهو الغصن الذهبى، يتساءل مالينوفسكى بعد أن عايش المجتمع فى الحاضر من خلال تفاعل مكوناته: ما هو المجتمع بالنسبة لذاته، وما الذى يجعله قابلا للحياة بالنسبة لأولئك الذين ينتمون؟[١].

ولذلك يقرر مالينوفسكى أنه على الباحث ألا يركز اهتمامه على البحث عن نشأة الثقافة وتطورها، وإنما الأجدى له أن يعنى عناية كبيرة بالبحث عن مفعول هذه الثقافة ووظيفتها التى تؤلف وحدة متكاملة. فالثقافة تؤدى خدمة رئيسية باعتبارها الوسيلة التى يمكن عن طريقها أن يتفاعل الناس بعضهم مع البعض الآخر ومعرفة ما يدور فى عقولهم فوجود الإنسان فى ثقافة معينة يستلزم مقدرته على فهمها ومعرفة التجربة الحياتية للآخرين الذين يحيطون به. فتجارب الأفراد الخاصة لا تشكل بتراكمها تراثاً ثقافياً، وإنما الذى يشكل الثقافة هو التفاعل الاجتماعى الناشىء عن وحدة اللغة والتراث وأنماط الحياة، ولهذا تسمى الثقافة فى كثير من الأحيان "التراث القومى الاجتماعى"، وهى تنطوى على بعض العناصر التى تظل بمنأى عن اللمس والمنال كالأفكار والقيم والمعتقدات، الأمر الذى يفرض على الباحث ألا يكتفى بالملاحظة الخارجية فقط، وإنما يعمل على فهم السلوك وتفسير الدوافع بصورة تسمح له بوصف الحقائق المتعلقة بوسائل التفاهم، وحاجات الإنسان العضوية والعاطفية، والطرق العملية لإشباع هذه الحاجات[٢].

---

(١) فرنسوا لابلاتين، مفاتيح الأنثروبولوجيا، تعريب حفناوى عمايرية، مركز النشر الجامعى، تونس، ٢٠٠٠، ص٦٦.

(2) Malinowski, B.; A scientific theory of culture, op. cit., p. 37.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هكذا يختلف تصور مالينوفسكى فى بحثه عن الثقافة عن تصور التطوريين والانتشاريين، فهو يعتمد على التحليل الوظيفى التكاملى للظواهر الثقافية فى علاقتها بخصائص الإنسان البيولوجية من ناحية وفى علاقتها بالبيئة الخارجية من ناحية أخرى. فهو لا يرفض البحث عن (الأصول) ولكنه يرفض الأسلوب القائم على التصورات والتخمينات ولا يقبل سوى البحث القائم على الحجج والبراهين والعلاقات القائمة بين الظواهر والعناصر والسمات التى تدخل فى نظام واحد وفى نسق متكامل.

خامساً: الخصائص الأساسية للثقافة ودعائمها:

تتصف الثقافة فى نظر مالينوفسكى بالصفات الخمس التالية:

١. الثقافة هى الأداة التى يستطيع الإنسان عن طريقها أن يواجه المشكلات التى تصادفه – فى بيئته – أثناء اتباعه لحاجاته.

٢. الثقافة عبارة عن نسق من الأشياء والأنشطة والاتجاهات التى يظهر فيها كل جزء وسيلة إلى غاية.

٣. الثقافة عبارة عن كل متكامل تتساند فيه مختلف العناصر التى تشكلها تساندا تاما.

٤. تدور الأنشطة والاتجاهات والأشياء التى تشكل النسق الثقافى حول قضايا مهمة وأساسية، يظهر بعضها فى صورة تنظيمات على شاكلة الأسرة والعشيرة والمجتمع المحلى والقبيلة، وبعضها فى صورة مصطلحات كتلك التى تتعلق بالتعاون الاقتصادى والنشاط السياسى والقانونى والتربوى.

٥. يمكن تحليل الثقافة – من وجهة النظر الديناميكية ومن ناحية نمط النشاط – إلى عدد من المظاهر على شاكلة التربية، والضبط الاجتماعى، والاقتصادى، وأنساق المعرفة، والمعتقدات والآداب، إلى جانب أشكال التعبير الإبداعى والفنى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعلى هذا ترتبط الثقافة ارتباطا وثيقا بحياة الناس فى المجتمع ومن هنا تضم ألوان التراث المادى والمعنوى، فالأدوات والمعدات المادية تشترك جنبا إلى جنب مع التنظيم والعادات والعرف فى تشكيل التراث الثقافى الذى يوجه سلوك الناس ويحدد تصرفاتهم(١).

وقد قامت نظرية الثقافة عند مالينوفسكى على الدعائم التالية:

١. يبدأ مالينوفسكى نظرته للثقافة من الفرد، ويعد الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات البيولوجية.

٢. لا يمكن فصل الثقافة عن حياة الناس فى المجتمع، ولا يمكن تصور الثقافة بعيداً عن المجتمع ولا تصور للمجتمع بلا ثقافة.

٣. تعد الثقافة نسقا من الأنشطة والاتجاهات والأشياء التى يلعب كل منها دوراً محدداً لتحقيق غاية ما.

٤. الثقافة وحدة متكاملة تتألف من عدد من النظم المستقلة استقلالا جزئياً، وإن كان يقوم بينها نوع من التنسيق.

٥. يمكن تحليل الثقافة إلى النظم التى تشكل وحداتها البنائية، والتحليل هنا يوجه إلى العلاقات التى تقوم بين الظواهر الثقافية دون البحث عن نشأتها وتطورها.

٦. ليس من شأن الباحث الوظيفى أن يحاول إعادة تركيب الثقافة بل عليه أن يوجه جهوده نحو دراسة مكونات وعناصر الثقافة التى يلاحظها بالفعل.

٧. لا يمكن لأى مظهر ثقافى أن يستمر فى الوجود بعد أن تختفى وظيفته، ولهذا لا وجود لما يعرف بالبقايا أو الرواسب الثقافية(٢).

---

(1) Ibid, p. 150.
(2) Ibid, pp. 150 - 151.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الفصل الرابع

تطبيقات نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية
(الدراسات البريطانية والعربية)

- تمهيد.

أولاً: سياق الحال وطبيعة البحث الميدانى.

ثانياً: تأثير مالينوفسكى فى الأنثروبولوجيا البريطانية.

ثالثاً: دراسات الأنثروبولوجية العربية.

رابعاً: تقييم تطبيقات نظرية السياق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تمهيد:

من أجل تفعيل عنوان الرسالة والوقوف على الإسهام الذى قدمته نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية قد يكون من المنطقى القيام بوضع الأنثروبولوجيا الاجتماعية بكاملها منذ ظهور مالينوفسكى وحتى الآن فى إطار نظرية السياق. ومع ذلك فإن ترتيب الأمور من حيث المنطق يختلف عليه من حيث الواقع، وذلك بسبب موقف علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين أنفسهم من موضوع اللغة ومن النموذج السيكوبيولوجى الذى قدمه مالينوفسكى للبحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

إن علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين لم يتجاوبوا منذ بدايات القرن التاسع عشر مع اللغة، فقد نظر هؤلاء إلى التطورات المبكرة التى أحرزتها الفيلولوجيا المقارنة Comparative Philology على أنها تمثل عائقا للتطور النظرى فى الأنثروبولوجيا التطورية إذ رأوا أنها ليست عاملاً مساعداً لها، وقد ظهرت الحركة الفيلولوجية فى العقد السابع من القرن التاسع عشر تحت قيادة كارل بروجمان K. Brugmann وزملائه، وعاش النحاة الشبان Neo Grammarians وماتوا فى هدوء دون أن يلحظهم أحد، وألقى فردينان دوسوسير محاضراته فى بداية القرن العشرين ولم يستشهد به علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ودرَّس مالينوفسكى نظرية السياق وأوصى بضرورة تعلم لغة المجتمع المدروس ومع ذلك لم تعتنق الأنثروبولوجيا الاجتماعية أفكاره[١].

فى الواقع لقد كانت نظرية السياق تمثل الأساس المهم الذى أقام عليه علماء اللغة البريطانيون نظرية المعنى أثناء فترة تطور علم اللغة العام فى بريطانيا، ولقد ظلت هذه النظرية تمثل النظرية اللغوية الأكثر خضوعا للمناقشة طوال العقود التالية للحرب العالمية الثانية، سواء فى بريطانيا أو أمريكا. وفى الواقع لقد كانت مطالبة مالينوفسكى بالأسبقية الدلالية للكلمات، وتمسكه بضرورة النظر للغة بوصفها تمثل نموذجاً من النشاط أو الفعل الإنسانى وليس بوصفها التعبير الحرفى عن الفكر المجرد، يأتى على

---

(1) Ardener, E.; Social Anthropology and Language, Tavistock Publications, London, 1971, (Introduction).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النحو المعاكس تماما من كل النظريات اللغوية الغربية ابتداء من أرسطو Aristotle (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) وحتى وقتنا الحاضر، ولقد لعبت هذه الأفكار دوراً مهماً ليس فقط فى إرساء علم اللغة فى بريطانيا وإنما أيضاً فى الجهود المتعلقة بالوضعية التجريبية بين علماء حلقة فيينا Vienna Cycle وبشكل أخص عند فيتجنشتاين Wittegenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١م)[1].

وعلى الرغم من أن مالينوفسكى لم يكن باحثاً لغوياً (بالمعنى الذى كره به علماء الأنثروبولوجيا علم اللغة على اعتبار أنه علماً مستقلاً وأن اللغة تأتى خارج اهتمامهم)، وإنما كان باحثاً إثنوجرافياً دعته الحاجة إلى التحول إلى النظر لمشكلات اللغة والمعنى فى سياقهما الثقافى الأجنبى، وحيث كان المخطط الذى وضعه لمفهوم السياق الثقافى مخططاً إثنوجرافياً خالصاً ارتبط بشكل خالص بالثقافة التروبرياندية، وعلى الرغم من ذلك إلا أن علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانيين (وبشكل خاص من شايع منهم النموذج السوسيولوجى الذى وضعه رادكليف براون للأنثروبولوجيا الاجتماعية) لم يتحملوا معارضة مالينوفسكى لعلم الاجتماع الفرنسى، وبالفعل فقد رفض مالينوفسكى المفاهيم النظرية أو الفلسفية التى وضعها دوركايم لعلم الاجتماع الفرنسى ونقلها عنه رادكليف براون إلى بريطانيا، حيث كان لدى مالينوفسكى نزعة صارمة لمعارضة كل المفاهيم النظرية أو كل المقولات المجردة التى لا تساعد الباحث الميدانى الأنثروبولوجى فى فهم الواقع الثقافى العينى للمجتمعات البدائية الأجنبية التى شكلت المسرح التقليدى للعمل الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

وبإيجاز سوف نتناول فى هذا الفصل التطبيقى:

أولاً: سياق الحال وطبيعة البحث الميدانى.

ثانياً: تعبين تأثير مالينوفسكى فى الأنثروبولوجيا البريطانية.

ثالثاً: الدراسات الأنثروبولوجية العربية.

رابعاً: تقييم تطبيقات نظرية السياق.

---

(1) Ibid.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً: سياق الحال وطبيعة البحث الميدانى:

فى الوقت الذى قدم فيه مالينوفسكى نظرية السياق (١٩٢٣م) كان علماء الأنثروبولوجيا قد استشعروا أهمية التخلى عن جامعى المواد الإثنوجرافية غير المحترفين، فقد كان هادون رئيس بعثة كمبردج إلى مضايق توريس قد أشار إلى أهمية الربط بين المسوح الإثنوجرافية الإقليمية وتنفيذ الأبحاث الميدانية المكثفة على يد المحترفين، وكان ريفرز قد ناقش القيمة العلمية للبحث الميدانى المكثف مقارنة بالمسوح الإقليمية، فقد اعتقد ريفرز أن البحوث المسحية والمعرفة السطحية التى تقدمها تحتاج إلى البحث المكثف، وقد كتب:

"إن النموذج النمطى للبحث المكثف هو ذلك النموذج الذى يعيش الباحث فيه لمدة عام أو أكثر فى أحد المجتمعات البدائية. بحيث يصبح على معرفة وثيقة بكل عضو من أعضاء المجتمع، ويقوم بدراسة كل تفاصيل حياتهم وثقافتهم، وأن يقوم بذلك باستخدام اللغة الأهلية الدارجة، إنه فقط عن طريق هذا العمل يمكن أن نكتشف قصور العمل المسحى والمعرفة السطحية التى تشكل الأساس الحالى للمعرفة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية"(١).

وقد كان سليجمان Seligman (١٨٨٦ - ١٩٧٥م) قد تحدث عن أهمية التركيز بصفة رئيسية على المشاهدات العينية وعلى أهمية القيام بجمع المعلومات بطريقة شخصية من الإخباريين(٢).

لقد تأثر مالينوفسكى - كما اعترف بذلك - بحديث المنهج لدى هؤلاء العلماء، وقد كتب أن منهج ريفرز بالذات للتحليل السوسيولوجى كان دائما نصب عينيه أثناء قيامه بالبحث الميدانى فى جزر التروبرياند، وأن كتاب ريفرز: تاريخ المجتمع

---

(1) Malinowski Project, seminar project for Anthropology, 500b, spring term, 1999, at yale university.
URL:http://classes.yale.edu/03 - 04/anth500b/projects/project - sites/99 - song/default.htm

(٢) محمود حمدى عبد الغنى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية "نماذج التأويل"، دار نوار، بيروت، ٢٠٠٢، ص١٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المالينيزى The History of Melanesian Society كان كتاباً رائعاً وملهماً ولكنه ليس مقنعاً. لقد كانت قيمة كتاب ريفرز بالنسبة لمالينوفسكى أنه يسمح للباحث أن يضع الأسئلة بنفسه بطريقة موضوعية وأن يقوم بطرحها على الإخباريين بطريقة عينية، وذلك لأنه قدم عدداً من المعطيات الموثقة فى هذا المجال. ومع ذلك فقد وجه مالينوفسكى نقده العنيف للكتاب وكتب:

"يجب على الباحث الأنثروبولوجى أن يتخلى عن الوضع الجسمانى المريح على شرفة المجتمع التبشيرى أو المقر الحكومى أو البيوت الريفية - حيث يكون مسلحاً بالقلم وكراس الملاحظات وأحياناً بالويسكى والصودا - من أجل جمع الإفادات وتسجيل القصص من الإخباريين، وملأ صفحات الورق بالنصوص الهمجية، على الباحث الميدانى أن يخرج إلى القرى وأن يشاهد الوطنيين أثناء العمل فى الحدائق وعلى الشاطىء وفى الأدغال، وأن يبحر معهم وأن يلاحظهم أثناء الصيد والتجارة والبعثات التجارية، حيث يجب إحضار المعلومات بنكهتها الكاملة والاعتماد على الملاحظات الشهودية، وعدم الاكتفاء باستخراجها من الإخباريين الممانعين كقطرات هزيلة من الكلام"(١).

ولقد أعاد السير جيمس فريزر Frazer (١٨٥٤ - ١٩٤١م) الكلام نفسه الذى سبق وأن قاله مالينوفسكى عن نفسه، ففى تصديره لكتاب الأرجونوتس كتب فريزر:

"لقد عاش الدكتور مالينوفسكى بوصفه وطنياً بين الوطنيين لشهور عديدة متصلة، ملاحظاً لهم يومياً أثناء العمل، وأثناء اللعب، متحدثاً معهم بلسانهم الوطنى، ومستنبطاً كل معلوماته من المصادر الوثقى والملاحظة الشخصية والإفادات التى قدمت إليه بواسطة الوطنيين فى لغتهم الوطنية ودون تدخل من المترجمين"(٢).

لقد ظهرت نظرية السياق عند مالينوفسكى فى سياق نقده لمنهج البحث الميدانى بالاعتماد على الإخباريين، وتمسكه بضرورة دراسة الثقافة الأجنبية عن طريق العيش بين أعضاء المجتمع المدروس والعمل من خلال وسيط وهو اللغة الأهلية الدارجة دون

---

(1) Malinowski Project, op. cit.
(2) Frazer, Sir, J.; "Preface" to B. Malinowski, op. cit.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أدنى اعتماد على الإخباريين، وبذلك فقد كانت نظرية السياق تمثل بالنسبة لديه تقنية منهجية يجب على الباحث الأنثروبولوجى الاستعانة بها من أجل فهم اللغة قبل الكتابية Preliterate قبل الشروع فى تنفيذ بحثه الميدانى.

فى الوقت الذى ظهرت فيه نظرية السياق فيه (١٩٢٣م) كانت هناك ثلاث مسارات فكرية تتنافس لتوجيه الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وتلك المسارات هى التطورية والانتشارية والوظيفية، فى تلك اللحظة التاريخية لم يكن مالينوفسكى قد صنف نفسه بعد ضمن أى من هذه المسارات النظرية، ومع ذلك فسرعان أن مال مالينوفسكى إلى تأكيد النزعة الوصفية Discripitivism (أو النزعة الوظيفية Functionalism) على المقابل من التوجهات التطورية والانتشارية الأسبق فى دراسة الثقافة، وهو نهج يتوازى بشكل ما مع التعاليم المعاصرة التى وضعها عالم اللغة السويسرى فردينان دوسوسير F. De Saussure للبحث اللغوى، والتى أكدت على أسبقية الدراسة التزامنية Synchronic للغة على الدراسة التعاقبية Diachronic ولكن على حين كان توجه دوسوسير توجهاً سوسيولوجياً دوركايمياً يقر بضرورة الفصل بين ما هو اجتماعى وما هو فردى، ويعطى الأسبقية المطلقة لما هو اجتماعى، وبضرورة تفسيره بما هو اجتماعى، كان توجه مالينوفسكى توجهاً سيكولوجياً صريحاً، حيث خرج مالينوفسكى على التقنيات السوسيولوجية للبحث الأنثروبولوجى، فعلى الخلاف من رادكليف براون الذى أكد على أهمية إخضاع الباحثين الأنثروبولوجيين للتدريب الكامل فى النظرية السوسيولوجية وفى مناهج الملاحظة الاستقرائية كما نصت التعاليم الفرنسية لعلم الاجتماع، كان مالينوفسكى ينظر للبحث الميدانى الأنثروبولوجى بوصفه إحدى الخبرات العميقة التى يمر بها العقل الديكارتى الأوروبى، ومن ثم فقد اهتم بمشكلات تعلم اللغة الدارجة فى المجتمع البدائى المدروس، والترجمة الثقافية للشواهد الإثنوجرافية. ولذلك اتجه إلى تأسيس البحث الميدانى وفقاً لأصول علم النفس، فكما ذكرنا من قبل لم تكن الدراسة الميدانية للنظم أو الأعراف البدائية تتم فى رأيه فى ضوء التمثيل الموضوعى لها، وإنما تتم فى ضوء التصوير السياقى للدور الذى تقوم به فى إشباع الحاجات السيكولوجية والبيولوجية للأفراد المكونين للمجتمع البدائى بوصفهم أفراداً. فمن هنا اهتم بضرورة التعبير

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

السياقى عن المعانى الاجتماعية، وعلى وضع "اللغة الدارجة" كوسيط بين الدارس الأنثروبولوجى والواقع البدائى المدروس وذلك بغاية تفريغ العوالم التصويرية أو القياسات التمثيلية التى يعيش بها أعضاء المجتمع المدروس(١).

فى عام ١٩٢٢م (وهو العام الذى شهد ظهور كتاب الأرجونوتس) نشر رادكليف براون كتاب: سكان جزر الأندمان Andman Islanders، ومع أن الكتاب كان إعادة تركيب للتاريخ الثقافى الأندمانى، فقد أعاد - فى تقديمه لطبعة عام ١٩٣٨م من الكتاب نفسه - معالجة المادة الإثنوجرافية من خلال علم الاجتماع الدوركايمى، وبإيجاز فقد أخذ رادكليف براون من دور كايم:

١. أن الحقائق الاجتماعية هى أشياء بذاتها وأنه يجب دراستها بعيداً عن دراسة الحالات أو الأسباب الفردية.

٢. أن الوحدة الأساسية للبحث هى مجتمع ما بكامله.

٣. أن المجتمع هو صيغة Configuration من النظم الاجتماعية، وأنه من أجل دراسة الصبغة يجب على المرء دراسة طبيعة الأجزاء (النظم) وعلاقاتها المتبادلة فيما بينها.

٤. أن الدراسات السوسيولوجية الحقيقية يجب أن تكون دراسات وظيفية بنائية ومقارنة(٢).

ولقد كان هذا النوع من الأنثروبولوجيا السوسيولوجية أو الوظيفية البنائية مختلفاً تمام الاختلاف عن الميول التفسيرية السيكولوجية عند مالينوفسكى، التى عبرت الأنثروبولوجيا السيكولوجية أو الوظيفية السيكولوجية لديه عن الاختزال المباشر للحقائق الاجتماعية إلى الحاجات السيكولوجية والبيولوجية الأساسية، ولقد اقترح مخططاً ضمّن فيه الحاجات الأساسية والمشتقة، فالحاجات الأساسية هى: التغذية، التناسل، الراحة الجسدية، الأمان، التسلية، الحركة، النمو، الصحة. ولم تكن الثقافة

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(2) Malinowski Project, op. cit.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الإنسانية هى شيء قائم بذاته، وإنما كانت قد تأسست بشكل أساسى وفقاً للحاجات البيولوجية للإنسان، أما الحاجات المشتقة فتنتج عن المحددات المعرفية الجديدة التى يفرضها الإنسان على سلوكه، وذلك من خلال الحاجة إلى المعرفة وإلى العلم البدائى ليقوم الإنسان ببناء نظم المعرفة والحدس، والدين. وذلك لإشباع الحاجات المشتقة Derived Needs[١].

ثانياً: تأثير مالينوفسكى فى الأنثروبولوجيا البريطانية:

خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين استطاع مالينوفسكى دفع مدرسة لندن لعلم الاقتصاد إلى مقدمة مراكز البحث الأنثروبولوجى داخل بريطانيا، وذلك من خلال الحلقات الدراسية الأسبوعية التى كان يعقدها ابتداء من عام ١٩٢٢م، وعلى الرغم من ذلك فقد جنت جامعة اكسفورد Oxford التفوق فى الثلاثينيات، ففى عام ١٩٣٥ عاد إيفانز بريتشارد E. Evans - Pritchard (١٩٠٢ - ١٩٧١م) من شمالى افريقيا وعكف فى كمبردج Cambridge لكتابة أبحاثه، ولكنه سرعان ما عُرض عليه منصبا (محاضر بحث) فى علم الاجتماع الإفريقى African Sociology فى أكسفورد، وفى عام ١٩٣٧م نشر دراسته بعنوان الأزاندى Azande، وهو العام نفسه الذى عاد فيه رادكليف براون إلى أكسفورد وعُين فى وظيفة أستاذ[٢].

وفى عام ١٩٣٩م اندلعت الحرب العالمية الثانية ورحل مالينوفسكى إلى أمريكا وتوفى هناك فى عام ١٩٤٢م، وبعد الحرب أعادت أكسفورد تشكيل هيئاتها التدريسية، وخلال العقد التالى للحرب وحتى وفاة رادكليف براون فى عام ١٩٥٦م سيطر النموذج السوسيولوجى الذى قدمه رادكليف براون على الأنثروبولوجيا الاجتماعية. لقد ترسم راد كليف براون الخطوات التى خطاها إميل دور كايم فى إرساء قواعد علم الاجتماع الفرنسى، وعلى الرغم من أن خطوات إميل دور كايم كانت تخص المجتمع الصناعى الأوربى، كان استخدامه للمواد الإثنوجرافية التى كانت منشورة ومتداولة

---

(1) Malinowski, B.; Magic, Science, and Religion, and other essays, Souvenir Press, London, 1982, p. 202.
(2) Malinowski Project, op. cit.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على أيامه كان من أجل فهم الأوضاع الاجتماعية فى المجتمعات الأوروبية الصناعية وليس فهم المجتمعات البدائية البسيطة، وهو الذى أطلق عليه محمود حمدى عبد الغنى تعبير "الإثنوجرافيا من أجل السوسيولوجيا"(١)، فقد استثمر رادكليف براون التعاليم السوسيولوجية وقدم مفهومه عن البناء الاجتماعى، بوصفه الموضوع المحورى الذى تدور حوله البحوث الأنثروبولوجية الميدانية.

وعلى الرغم من أهمية الثورة النظرية التى أثارها مفهوم "البناء الاجتماعى" الذى قدمه رادكليف براون والانتقادات المتنوعة التى قدمها العلماء لهذا المفهوم(*)، فإن الذى يعنينا فى هذا المقام هو مدى التزام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالتعاليم المالينوفسكية فيما يتعلق بتقنيات إجراء البحث الميدانى ونظرية السياق. لأن المثير فى الأمر أن الاهتمام باللغة بعد العصر المالينوفسكى البهيج فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية كان قد اختفى. وبصرف النظر عن الاهتمام الذى أظهره إيفانز بريتشارد فى نهاية الخمسينيات بالأنثروبولوجيا الفرنسية التى اتخذت - على يد كلود ليفى ستروس C. Levi Strauss - من علم اللغة البنائى نموذجاً للتفسير، فإن الأنثروبولوجيين البريطانيين لم يظهروا اهتماماً بدراسة اللغة أو الأدب الشفاهى، وهذا يعود إلى أن هذه الموضوعات كانت ضمن اهتمام علم الفولكلور Folklore وهو العلم الذى كان يدرس (فى نظرهم) الرواسب Survivals، التى ارتبطت بالأنثروبولوجيا التطورية والمتأملين المنظرين الفيكتوريين، ولقد رفض الأنثروبولوجيون الاجتماعيون (بما فيهم مالينوفسكى) نظرياتهم ومناهجهم، ولكن فبدلاً من أن يعمل هؤلاء الأنثروبولوجيون الجدد على تحسين المناهج والتفسيرات التى قدمتها الأنثروبولوجيا التطورية لدراسة الأدب الشفاهى، فقد اعتبروا هذه الظواهر (الحكاية الشعبية) الأسطورة، والنثر والشعر الشفاهيان) ظواهر مائعة ومتغيرة لا تخضع لنموذج التفسير السوسيولوجى الاستقرائى، أو أنها بمثابة

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص٢٦.

(*) من العلماء الذين نقدوا مفهوم البناء الاجتماعى لدى راد كليف براون نجد إيفانز بريتشارد وماير فورتس وجريفتش وريموند فيرث. انظر: محمود حمدى عبد الغنى، البناء والنظم والتغير، دار نوار، بيروت، ٢٠٠٦، ص٤١ - ٥٠.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ظواهر للتسلية ليس لها أية وظائف اجتماعية ثابتة فـــى المجتمـــع، وبالتـــالى لا يمكـــن دراستها وتفسيرها أو إدراجها ضمن مكونات البناء الاجتماعى[١].

وعلى الرغم من ذلك يمكن العثور فى ثنايا أدبيات الأنثروبولوجيـــا الاجتماعيـــة البريطانية على بعض الاهتمامات الخاصة بالتقنيات المنهجية التـــى قـــدمتها نظريـــة السياق، ولعل أهم هذه التقنيات هو تعلم اللغة الدارجة للمجتمع المدروس قبل العكـــوف على إجراء البحث الميدانى. ومن أهم هذه الاهتمامات جهود كل من:

١. إيفانز بريتشارد E. Evans - Pritchard (١٩٠٢ - ١٩٧٣م).
٢. ريموند فيرث R. Firth (١٩٠١ - ٢٠٠٢م).
٣. ماير فورتس M. Fortes (١٩٠٦ - ١٩٨٣م).
٤. داريل فورد D. Forde (١٩٠٢ - ١٩٧٣م).
٥. أودرى ريتشاردذ A. Richards (١٨٩٩ - ١٩٨٤م).
٦. إسحاق شابيرا I. Schapera (١٩٠٥ - ١٩٦٠م).
٧. كارل بولانى K. Polanyi (١٨٨٦ - ١٩٦٤م).

فمثلا يعد إيفانز بريتشارد أحد علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانيـــة الـــذين يمكن أن نعثر فى كتاباتهم على اهتمام بأفكار مالينوفسكى، التى من بينها ضرورة تعلـــم اللغات المحلية وأهمية استخدامها فى إجراء الأبحاث الأنثروبولوجية. فقد كان فـــى رأى إيفانز بريتشارد أن الشىء المهم بالنسبة للباحث الحقلى ليس اكتساب لغة التخاطـــب فـــى مدة يسيرة وإنما السيطرة الكاملة على هذه اللغة حتى يمكن فهم المعانى الدقيقة للكلمـــات والعبارات، وهو يشير إلى ذلك فى تجربته الميدانية مع مجتمع النوير Nuer حيث يقول:

> "كانت الصعوبة الأساسية التى واجهتنى فى هذه المرحلة المبكرة هى عدم قدرتى على التحدث بطلاقة مع النوير، فلم يكن معى مترجم ولم يكن أحد منهم يتحدث العربية (وهى إحدى اللغات التى أتقنها إيفانز بريتشارد) ولم يكن معى

(1) Finnegan, R.; Attitudes to the study of oral literature in British social anthropology, In man, 1969, vol. 5, pp. 59 - 69.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قاموس أو كتاب ملائم للغة النوير يمكن أن أتعلم قواعدها النحوية، ولذلك فقد قضيت بعثتى الميدانية الأولى كلها وجزءاً كبيراً من بعثتى الميدانية الثانية فى محاولة السيطرة بكفاءة على هذه اللغة بحيث استطيع القيام ببحوث من خلالها"(١).

أما ريموند فيرث فقد كان يحيل القارىء كثيراً (فى كتابه تيكوبيا The Tikopia ١٩٣٦م) إلى كتابات مالينوفسكى اللغوية وبخاصة مقال "مشكلة المعنى فى اللغات البدائية"، وقد حذا فيرث فى كتابه هذا حذو مالينوفسكى فى شرط عدم حرفية النصوص الوطنية عند ترجمتها حرفياً، وناقش مشكلة الترجمة هذه وربط بينها وبين النظرية السياقية عند مالينوفسكى(٢).

كما طبق مايز فورتس وجهة نظر مالينوفسكى فى تعلم اللغة المحلية لإتمام البحث الميدانى. وذلك فى دراسته التى ظهرت بعنوان "ديناميكية العشيرة عند التالنزى" The Dynamics of Clanship Among the Tallensi والتى نشرت عام ١٩٤٥م، فقد كتب فيها يقول:

"بسبب عدم وجود أى تراث أدبى مكتوب للغة التالنزى، فقد كان علينا أن نتعلم اللهجة المحلية (التالنى Talni) بمساعدة أحد المترجمين المحليين شبه المتعلمين الذين يجيدون الإنجليزية، وقد اقتضى الأمر ستة شهور كاملة حتى تعلمنا من لغة التالنى قد لا يكاد يكفى لتحقيق اتصالنا المهنى اليومى مع الأهالى، ولم نصبح بارعين فى تلك اللغة إلا مع نهاية جولتنا الميدانية الأولى، بحيث استطعنا حينئذ الاستغناء عن المترجمين"(٣).

---

(١) هيلارى هنسون، الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة، مرجع سابق، ص١٧٨.

(٢) نفس المرجع، ص١٨٤.

(٣) نفس المرجع، ص١٧٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثاً: دراسات الأنثروبولوجية العربية:

من المعروف أن جامعاتنا العربية (وخاصة المصرية) قد عرفت الأنثروبولوجيا فى بداية الأمر تحت مسمى علم الاجتماع المقارن، وبوصفها أحد المقررات الدراسية التى يتم تدريسها على أيدى بعض أساتذة الاجتماع ممن تلقوا تعليمهم فى بعض الجامعات الغربية، وقد استمر هذا الوضع طوال الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين إلى أن قامت جامعة الإسكندرية بإيعاز من راد كليف براون بإنشاء معهد العلوم الاجتماعية بكلية الآداب فى بداية الخمسينيات، وبعد ذلك بربع قرن تقريباً وتحديداً عام ١٩٧٤م أنشأت الجامعة ذاتها قسماً للأنثروبولوجيا فى تلك الكلية، ولقد ظهر كثير من الدراسات الأنثروبولوجية فى شتى ميادين الحياة الاجتماعية المصرية. ومن المؤكد أن هذه الدراسات تحتاج إلى معالجة مستقلة ولكننا إذا أخذنا فى الاعتبار اهتمام البحوث الأنثروبولوجية المصرية باللغة فسوف نقصر عرضنا على مجموعة من الدراسات: تلك التى اهتمت بدراسة اللغة فى سياقها الثقافى أو التى اهتمت بتحليل نظرية السياق بذاته وهذه الدراسات هى:

الدراسة الأولى: "البناء اللغوى من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية"[١].

ذكر الباحث فى الفقرة الأولى من مقدمة هذه الدراسة أن الهدف منها هو دراسة العلاقة المتبادلة بين اللغة والثقافة أى طبيعة التفاعل القائم بين المعايير الثقافية والتراكيب اللغوية، فمع أن الطبيعة المحددة والخصائص المميزة للغة أدت إلى وجود علم خاص يقوم بدراستها وهو علم اللغة Linguistics إلا أن التطورات الحديثة لمصطلح الثقافة Culture (وهو أهم المصطلحات العلمية المستخدمة فى علم الإنسان) يمكن أن تقدم لنا الدليل على مدى ارتباط اللغة بالثقافة، وهذا كفيل للقول أن اللغة (والتى تعتبر الموضوع الرئيسى لعلم اللغة) تأتى دائماً داخل الإطار الأنثروبولوجى.

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، البناء اللغوى من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف عبد المجيد عابدين وفاروق مصطفى اسماعيل، قسم الأنثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد انتقل الباحث بعد ذلك للحديث عن كيفية معالجة الموضوع وبين كيف فشل علماء اللغة فى معالجة البيئة الإنسانية للغة، وذكر كيف أن دراسته لا تهتم ببحث التراكيب النحوية - التى تعتبر الجمل Sentences الوحدة الأساسية للتحليل فى هذا الموضوع - ولكنها تهتم بدراسة الأحداث اللغوية أو المنطوقات Ultterances التى يعتمد وجودها مباشرة على العوامل غير اللغوية. وذكر أنه إذا كان علماء النحو قد اهتموا بإيجاد القوانين النحوية التجريدية التى تتعلق بإنتاج الكلام (وهذه القوانين ليس لها وجود فى الزمن) إلا أن عملية إخراج المعنى ومقابلة الكلمات (كأحداث زمنية) فى الواقع تخضع لمجموعة من القوانين بعضها لغوى، والآخر غير لغوى وإلا فما الذى يجعل المتحدث يختار المنطوقات التى يتم نطقها بالفعل، مع أن هناك منطوقات أخرى قد تقوم بنفس الوظيفة؟

وقد أشار الباحث إلى إهمال علماء اللغة الأسباب التى تؤدى إلى حدوث المظاهر اللغوية القائمة على العكس تماماً من الحقيقة التى تقول بأن كل أعضاء مجتمع كلامى يدركون تماماً ما هى المظاهر اللغوية الشائعة والنادرة والجديدة التى تميز مختلف مظاهر الكلام. وأشار الباحث إلى أن هذا الإدراك يتغلغل تماماً فى تعريفاتهم وتقييماتهم أو رفضهم لطرق الكلام بل إن هذه المظاهر تكتسب أساساً كجزء من مفاهيم الكلمات وكجزء من المعانى المرتبطة بالأشكال الخاصة بالكلام الممارس بل ومع فعل وممارسة الكلام ذاته. فإذا كان لكل نسق كلامى قوانينه النحوية التجريدية الخاصة (كما يذهب علماء اللغة) فإننا نذهب إلى أن له أيضاً قيمه الخاصة واكتفاءه الخاص وملاءمته للحياة الاجتماعية الخاصة. فمن هنا تظهر ليس فقط أهمية الاعتراف بالقوانين النحوية التى تحكم الكلام ولكن بالبواعث والقيم والاتجاهات التى تصبغ تلك القوانين حيث إنها نتاج للمجتمع والأشخاص.

وبإيجاز أجمل الباحث أن دراسته هى محاولة لتناول مفهوم اللغة أو القدرة اللغوية Competence والانتقال به من مجال القوانين النحوية التجريدية إلى مجال الاتجاهات والعادات والقيم التى تميز الكلام الفعلى الممارس.

كما تحدث الباحث عن المنهج المتبع فى الدراسة على اعتبار أن الحديث عن

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنهج لا يقل أهمية عن الحديث عن العلم. وتحت عنوان فرعى: المنهج المتبع فى الدراسة تحدث الباحث عن المنهج العلمى عرفه بأنه الجهد المبذول لتحقيق الفهم المتزايد للظواهر عن طريق تحصيل المعلومات الهامة التى يمكن بها الكشف عن المشكلة وتحليل وتفسير المادة ثم ربط نتائج هذا الجهد بنتائج الجهود الأخرى التى يحتويها التراث فى الموضوع (الاتصال العلمى بين البحوث). وذكر الباحث أن الدراسة اتبعت هذا المنهج الذى يبدأ بمراجعة التراث العلمى فى الموضوع حيث تعتبر هذه الخطوة هى الخطوة الجوهرية للمحافظة على الاستمرار فى العلم. ولم تكن هذه المعالجة تقييماً سلبياً واستعراضاً وصفياً له ولكنها كانت بمثابة تقييماً إيجابياً لهذا التراث الأمر الذى تحقق معه تعريف وتحديد المشكلة التى تناولتها الدراسة بما هو متاح من نظريات فى التراث الأنثروبولوجى.

ولقد جاء الفصل الأول بعنوان "موقف الأنثروبولوجيين من اللغة: نقد وتحليل" وفيه استعرض الباحث موقف المدرسة البريطانية وموقف المدرسة الأمريكية، وأظهر كيف أن اهتمام هؤلاء العلماء باللغة لم يكن سوى نتاجاً لاهتمامهم باستخدام اللغة كأداة بحثية ميدانية خلال إجراءهم البحوث الأنثروبولوجية الميدانية. وأظهر الباحث فى هذا الفصل كيف ظهرت بعض الاهتمامات بالتصنيفات اللغوية للبيئات وهو ما يعرف باسم "علم اللغة الجغرافى" وكيف اهتم علماء الأنثروبولوجيا بإظهار أن مفردات اللغة تعكس موضوعات البيئة. وتناول بالمناقشة فرضيات الحقيقة اللغوية على اعتبار أنها أهم القضايا التى أظهرها تراث الأنثروبولوجيا اللغوية فى أمريكا. وحرص فى نهاية هذا الفصل على كتابة تعقيب لكل ما تم مناقشته فى هذا الفصل وكيف أن علماء الأنثروبولوجيا الأمريكيين سلموا بأهمية العوامل الثقافية وتأثيرها على اللغة. وذكر كيف ساد هذا الوضع بين علماء الأنثروبولوجيا إلى أن ظهر كتاب تشومسكى Chomsky "البنى التركيبية" Syntactic Structures عام ١٩٥٧م فرغم قصر هذا الكتاب إلا أنه أحدث ثورة فى الفكر الإنسانى وفى كل التاريخ العلمى لموضوع علم اللغة حيث كان ظهور هذا الكتاب بمثابة بداية لمرحلة جديدة ومهمة من مراحل الفكر الإنسانى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وجاء الفصل الثانى بعنوان: "نظرة فى تراث النظرية اللغوية الحديثة" وقد جاء هذا الفصل لغوياً بحتاً وذلك فى محاولة للفهم العلمى الدقيق للغة، ولقد تم التركيز فى هذا الفصل على المدرسة التحويلية فى علم اللغة والسبب فى ذلك أن هذه المدرسة ليست مجرد مدرسة بين العديد من المدارس اللغوية فى علم اللغة، ولكنها أهم مدرسة فى هذا العلم بحيث أن المدارس الأخرى تميل لتعريف وتحديد موضوعها ومكانتها بالإشارة إلى هذه المدرسة. ولقد تناول الباحث فى هذا الفصل بشىء من التفصيل ما يلى:

- الجذور الفلسفية لفكر "تشومسكى".
- نظرية تشومسكى فى اكتساب المعرفة.
- نظريته عن اللغة (استقلال النحو).
- موقفه من الاتجاه الوظيفى.

وجاء الفصل الثالث بعنوان: "النظرية البنائية والنظرية التحويلية" وقد قام الباحث فيه بمراجعة كاملة للنظرية التحويلية (أو الفهم العلمى الفنى للغة) على أرضية النظرية المعرفية، ولقد بدأ هذا الفصل باستعراض المدارس العتيقة فى الفكر الاجتماعى التى تناولت الأسس الاجتماعية للمعرفة الإنسانية وهى المدرسة الألمانية والفرنسية والأمريكية، وعقد الباحث مقارنة بين النظرية التحويلية والنظرية البنائية ومناقشة لمفهوم البناء العميق فى كلتا النظريتين، وتم نقد مفهوم الإبداع - وهو من أهم مفاهيم تشومسكى - وأظهر الباحث عدم كفاية المفاهيم الفطرية التى ذهب إليها فى تفسير اللغة (لأنها تعتمد على البيئة الإنسانية).

وجاء الفصل الرابع بعنوان "دراسة المعنى ونظرية سياق الحال" وقد أظهر الباحث فيه قيمة المنظور الأنثروبولوجى فى دراسة المعنى اللغوى. حيث أن أهم التغيرات الجوهرية الحديثة التى أدخلت على علم اللغة جاءت من إحياء المنظور الأنثروبولوجى فى تناول الموضوع وبإسهام علماء أنثروبولوجيين حيث تناول الباحث بالعرض نظرية برونيسلاف مالينوفسكى عن سياق الحال ونظرية روبرت فيرث أيضاً

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن سياق الحال والإسهامات التى قدمها علماء اللغة لفهم المعنى، وأظهر الباحث كيف أن علماء اللغة التحويليين وعلى رأسهم لينجدون D. T. Langendoen (أحد تلاميذ تشومسكى المقربين) قد مالوا إلى آراء مالينوفسكى وفيرث فى تفسيرهم للغة أو المقدرة اللغوية.

ولقد أنهى الباحث دراسته بخاتمة تحدث فيها عن أهمية تبنى المنظور الأنثروبولوجى فى تناول اللغة وأهمية وجود "إثنوجرافيا الكلام" Ethnography of Speaking باعتبارها فرعاً من العلم يسهم بدرجة كبيرة فى إثراء فهمنا الأنثروبولوجى للغة.

الدراسة الثانية: "العوامل الاجتماعية والثقافية فى لغات بعض الطوائف المهنية فى مصر"[١]. دراسة أنثروبولوجية فى مدينة الإسكندرية.

احتوت هذه الدراسة على مقدمة وخاتمة وستة فصول، فى المقدمة حدد الباحث الهدف من الدراسة بأنه بحث الطبيعة الاجتماعية والثقافية للغة بعض الطوائف المهنية فى مدينة الإسكندرية، ولقد ربط الباحث هذا الهدف بهدف آخر وهو تحديد المنظور الملائم لدراسة اللغة فى سياقها الاجتماعى، وذلك بالاعتماد التام على تراث الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وعلم اللغة، وتطبيق هذا المنظور فى دراسة مصطلحات التخاطب كما تستخدم بين العاملين فى عدد من الطوائف المهنية فى مدينة الإسكندرية، وقد ذكر الباحث أن تحقيق مثل هذا الهدف العام لا يمكن أن يتم بطريقة مباشرة، وإنما من الضرورى القيام بعدد من الخطوات الفرعية للوصول إلى هذا الهدف العام، وهذه الخطوات هى:

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، العوامل الاجتماعية والثقافية فى لغات بعض الطوائف المهنية فى مصر "دراسة أنثروبولوجية فى مدينة الإسكندرية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف فاروق مصطفى اسماعيل، قسم الأنثروبولوجيا - كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، ١٩٩١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخطوة الأولى: تحديد الظاهرة اللغوية التى يتم دراستها ميدانيا وقد استقر رأى الباحث على اختيار "مصطلحات التخاطب" وذلك بسبب التقابل الواضح بين المعنى التعبيرى (اللغوى) والمعنى الاجتماعى لتلك المصطلحات.

الخطوة الثانية: تحديد الطوائف المهنية التى يتم دراسة استخدام مصطلحات التخاطب بين العاملين بها، وقد استقر رأى الباحث على اختيار العاملين بمهنة الصيد، ومجموعة المهن المساعدة، وهى على الترتيب: ورش صناعة المراكب (الترسانة الأهلية)، ورش حدادة المراكب، ورش الأشغال البحرية، حلقة بيع الأسماك بالجملة والقطاعى (حلقة السمك) وهى مهن استقرت منذ ما يزيد على قرن ونصف على امتداد الشاطئين الشرقى والغربى لحى الأنفوشى بمدينة الإسكندرية.

الخطوة الثالثة: تتعلق بمناهج جمع المادة اللغوية والإثنوجرافية حرصاً على دقة وتسجيل مصطلحات التخاطب ومختلف استخداماتها فى سياقاتها الاجتماعية، واستقر رأى الباحث على أن يعتمد على "المعايشة" كأسلوب لجمع المعلومات، وأن يحرص على الإنصات لكل ما يقال أمامه من مصطلحات للتخاطب، وأن يقوم بتسجيلها وتسجيل ظروف استخداماتها، على أن يقوم فى مرحلة تالية بالاستفسار عن هذه المصطلحات واستيفاء المعلومات الناقصة حولها. وقد كان ذلك إقراراً بأن المادة التى يقدمها الإخباريون أثناء المقابلات تختلف فى العادة عن المادة التى يستخدمونها بالفعل أو يتلقونها فى المحادثات الطبيعية.

الخطوة الرابعة: تتعلق بتصور السياق Context كوحدة للتحليل الأنثروبولوجى لمصطلحات التخاطب، واستقر رأى الباحث على الاعتماد على مدخل المكانة الاجتماعية Social State فى رصد مصطلحات التخاطب وتحليلها باعتباره المدخل الأقرب إلى تصور السياق من وجهة نظر المبحوثين أنفسهم باعتباره واقعا فعليا أو إطارا متوقعا لاستخدام مصطلحات التخاطب وتلقيها.

الخطوة الخامسة: تتعلق بكيفية التغلب على مشكلات التهجية التى تحفظ بها مصطلحات التخاطب عند تصويرها بحروف مكتوبة بنطقها الفعلى الذى تظهر به فى المحادثات الطبيعية، واستقر رأى الباحث على استخدام نظام الكتابة الفونيمية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Phonemic أى استخدام أبجدية اللغة العربية فى كتابة مصطلحات التخاطب العامية.

وقد صاغ الباحث الفرضية الأساسية للدراسة فى عدد من التساؤلات هى:

١. ما المظاهر الثقافية والاجتماعية الخاصة باختيار الأسماء الرسمية أو غير الرسمية وإطلاقها على الأشخاص فى المجتمعات المدروسة؟ وهل تستخدم هذه الأسماء فى الخطاب أم أن هناك فرصة لاختيار أسماء أخرى واستخدامها فى الخطابات السائدة؟

٢. إلى أى حد تكشف مصطلحات التخاطب عن العلاقة القائمة بين المخاطب والمتحدث؟ وهل تختلف هذه المصطلحات باختلاف طبيعة هذه العلاقة القائمة بينهما، وباختلاف "المكانة" التى يحتلها كل منهما فى السلم المهنى؟

٣. ما المصطلحات المستخدمة فى مخاطبة الأقارب؟ وهل تشير هذه المصطلحات دائما إلى العلاقة القرابية "الحقيقية" القائمة بين المخاطب والمتحدث؟

وبعد أن قام الباحث بقراءة نقدية للتراث الأنثروبولوجى واللغوى حول الدراسات العلمية التى تتناول الطبيعة الاجتماعية للغة، وبدأ بمراجعة التراث النظرى الموجود وذلك لتحقيق ما يسمى بالاتصال العلمى بين البحوث وتحديد مدخله التحليلى للموضوع، لم يجد أية نظريات متميزة تناولت موضوع دراسته، ووجد بعض أفكار متناثرة فى ثنايا الأبحاث لكنها لم تتناول مباشرة موضوع دراسته، وقد ذكر الباحث أنه لا يمكن أن تقدم مثل هذه الأفكار الأساس النظرى لموضوع الدراسة بالمعنى العلمى الدقيق، وعلى هذا تطرق اهتمام الباحث إلى محاولة فهم الأسباب التى أدت إلى عدم الاهتمام بدراسة هذا الموضوع سواء فى الأنثروبولوجيا أو فى علم اللغة، وهما العلمان اللذان كان يفترض اهتمامهما بموضوع الدراسة، وقد ترتب على عدم وجود أية نظرية خاصة بدراسة اللغة فى سياقها الاجتماعى ضرورة البدء بفهم الأسباب التى أدت إلى ذلك سواء فى الأنثروبولوجيا أو فى علم اللغة.

وبعد التناول النقدى التفصيلى للتراثين الأنثروبولوجى واللغوى انتهى الباحث إلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن نظرية "سياق الحال" هى النظرية المثلى فى هذا المجال وقد كان اختيار الباحث لدراسة مصطلحات التخاطب فى سياقها الاجتماعى يعود إلى التقابل الواضح بين المعنيين التعبيرى والاجتماعى لها، وقد شرع الباحث فى دراستها من منظور نظرية السياق على هذا الأساس.

وقد أبدى الباحث عدداً من الملاحظات المهمة وذلك قبل عرضه لأهم النتائج ونظراً لأهميتها نوجزها فيما يلى:

الملاحظة الأولى:

وهى خاصة باستخدام أسلوب المعايشة فى جمع المادة، فقد قرر الباحث ذلك على أن يتم استيفاء المادة وإثبات صدقها اعتمادا على أسلوب المقابلة وتوجيه الأسئلة المباشرة، ومع ذلك فقد أثبت الباحث فى خاتمة الرسالة أنه لم يتم تطبيق هذا الأسلوب فى جمع كل المادة، فقد كان فهم استخدام مصطلحات التخاطب يفرض توجيه الاسئلة المباشرة ولقد كشف هذا الأسلوب أن دراسة تلك المصطلحات لا يتم فقط بملاحظتها فى سياقاتها الاجتماعية، وإنما يتم فى ضوء التعرف عن طريق تقنية السؤال والإجابة على الاتجاهات السائدة نحوها.

الملاحظة الثانية:

وهى حول التحليل السياقى لمصطلحات التخاطب فقد افترض الباحث إمكانية دراسة هذه المصطلحات وتحليلها فى سياقاتها الاجتماعية من منظور شبكة العلاقات الاجتماعية، ومع ذلك فقد ظهر للباحث أن التحليل السياقى من هذا المنظور لا يرتبط بتحليل مصطلحات التخاطب وانما يرتبط بفهم التعبيرات الفعلية المتبادلة لأن مصطلحات التخاطب شكلت بالأساس السياق الاجتماعى الذى يتم داخله تبادل التعبيرات اللغوية بين المتحدثين، فالمخاطب قد يتلقى مصطلحا معينا من مختلف الأشخاص وفى مختلف المواقف دون أن يكون لاختلاف الأشخاص أو المواقف دخل فى اختيار هذا المصطلح. فى حين أن التعبيرات الفعلية التى يصدرها الشخص أو يتلقاها ترتبط فى العادة باختلاف الأشخاص والمواقف التى تظهر فيها، وباختلاف

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مصطلحات التخاطب التى يتلقونها أثناء التفاعل الاجتماعى.

الملاحظة الثالثة:

وهى حول تحديد المجتمعات الكلامية على أساس المهن، فقد ظهر أن المهنة لا تصلح كمعيار لدراسة مصطلحات التخاطب فى سياقها الاجتماعى مع أنها معيار صالح لدراسة التعبيرات الفعلية فى سياقها الاجتماعى، فقد كان ظهور مصطلحات التخاطب لا يرتبط بالمهنة فقط وإنما يرتبط بمعايير أخرى (كالعمر والاحترام والقرابة وتبادل المنافع ... وهكذا) فى حين ارتبط استخدام التعبيرات الفعلية بالمكانة التى يشغلها المتحدثون على السلم المهنى والظروف المهنية الخاصة.

أما أهم النتائج التى كشفت عنها الدراسة الميدانية فهى كالتالى:

أولاً: فيما يتعلق بالمظاهر الثقافية لعملية التسمية فقد أظهرت الدراسة أن العامل الثقافى المهم فى بلورة الخصائص الثقافية لاختيار الأسماء هو الاكتساب الشفاهى للغة المحلية، فقد لعب هذا العامل الدور الحيوى فى تحديد الخصائص اللغوية لتصريف الأسماء واشتقاقاتها وفى الاختيار المجازى لجانب من معجم الأسماء الشعبية كأسماء الشهرة واستخدامها. فليس هناك عرف سائد للنطق أو لاشتقاق الكلمات، وقد كان الإبداع الشخصى هو المتحكم الوحيد لسلوك الفونيمات والمورفيمات، وإن كان هناك بعض المظاهر الثقافية الأخرى مثل:

١. وجود نمط تسمية الأبناء على غرار أسماء الآباء.
٢. أن القاسم الأكبر من أسماء التدليل لم يكن هو الأسماء الاشتقاقية الشائعة فى اللهجة المصرية العامية، بل أسماء أخرى أو صفات ترتبط إما بالأشكال الفيزيقية للأفراد أو الملامح العقلية أو السلوكية لهم.
٣. شيوع نمط من أسماء الشهرة يكاد يلغى الأسماء الرسمية. وعلى الرغم من أن المجتمعات المدروسة مجتمعات أبوية فقد تضمنت المادة نموذجا يعرف به الشخص ويخاطب منسوبا لاسم أمه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٤. عدم ظهور الأسماء العائلية فى الأحاديث المباشرة، فتلك الأسماء لا تظهر إلا فى الخطاب غير المباشر وبخاصة مع الغرباء.

٥. عدم شيوع نمط الكنية الافتراضية، وبالتالى شيوع الكنية الواقعية والكنية الشعبية.

ثانياً: فيما يتعلق بالطوائف المهنية ومصطلحات التخاطب فقد كشفت الدراسة :

١. أن مصطلحات التخاطب المستخدمة بين المهنيين تشكل فى ذاتها أهم "علامات" السياق الاجتماعى، وتحدد فى الوقت نفسه العلاقة القائمة بين المخاطب والمتحدث.

٢. أنه ليس من الضرورى استخدام المصطلح ذاته فى كل عبارة يتلقاها المخاطب. وإنما يكفى أن يتلقى المصطلح مرة واحدة، مثلا أثناء إلقاء التحية ولو ظهر بعد ذلك الضمير أنت فهو لا يعبر عن الندية بينه ومحدثه.

٣. أظهرت الدراسة أن المصطلحات التى يتلقاها المخاطب من العاملين معه داخل المهنة ليست هى تلك التى يتلقاها من العاملين فى المهن المختلفة.

٤. أن المكانة الفعلية الأعلى التى يحتلها العاملون على السلم المهنى لا ترتبط فقط بتلقى مصطلحات التخاطب الأعلى - وانما ترتبط أيضاً بإصدارهم التعبيرات الفعلية التى تؤكد تلك المكانة (كإصدار الأوامر أثناء العمل ... وما شابه ذلك).

٥. يقل فى المزادات استخدام مصطلحات التخاطب. أما فى مواقف البيع للأهالى. فإنهم يمثلون النصيب الأعلى لتلقى مصطلحات التخاطب.

ثالثاً: فيما يتعلق بالقرابة ومصطلحات التخاطب فقد كشفت الدراسة :

١. أن استخدام المصطلحات التى تدل على العلاقة القرابية لها الأولوية فى سياق الأحاديث.

٢. أن مبدأ الجيل لا يحدد فى كل الأحوال اختيار المصطلح القرابى المناسب.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣. أن نموذج الكنية الواقعية لا يستخدم إلا بين أبناء الجيل القرابى الواحد، فى حين أنه النموذج المفضل لمخاطبة الأقرباء بالمصاهرة.

٤. أن الاستخدامات المجازية لمصطلحات القرابة – على عكس الاستخدامات الحقيقية التى تفرضها العلاقة القرابية الفعلية بالمتلقى – ترتبط بقصد المتحدث من استخدامها. وتختلف فى العادة حتى مع الشخص الواحد باختلاف المواقف التى تظهر فيها.

الدراسة الثالثة: "عوامل تغير اللغة العامية فى مصر" دراسة أنثروبولوجية لغوية ميدانية[١].

موضوع الدراسة:

جاءت هذه الدراسة لبحث ظاهرة التدهور اللغوى فى محاولة للوقوف على عوامل تغير اللغة العامية فى مصر حيث ذكرت الباحثة أنه لو نظرنا إلى لغتنا العامية الدارجة لوجدناها تتعرض لعدة تغيرات سريعة وجذرية لم نلاحظها من ذى قبل، هذا التغير أصبح موضوع اهتمام ومحط أنظار معظم من يتكلم بها. فلقد تعرض المجتمع المصرى خاصة فى الفترة التى أعقبت حرب اكتوبر (١٩٧٣م) لتغيرات واضحة فى كل من النظام السياسى والاقتصادى والاجتماعى، مما أدى إلى تغير اللغة العامية الدارجة على ألسنة الشعب المصرى، فالتغير الذى حدث فى تلك النظم أمد اللغة بمصطلحات وألفاظ جديدة لم نألفها من قبل.

---

(١) مها محمد فوزى معاذ، عوامل تغير اللغة العامية فى مصر "دراسة أنثروبولوجية لغوية ميدانية"، رسالة دكتوراه، إشراف محمد عبده محجوب، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب – قسم الأنثروبولوجيا، ١٩٨٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فروض وأهداف الدراسة:

لقد تطلعت الباحثة إلى بيان:

١. مدى ارتباط التدهور اللغوى بالتغيرات التى حدثت فى:
   - الجانب الاقتصادى.
   - الجانب الاجتماعى والثقافى.
   - الجانب السياسى.
٢. مدى شيوع المستحدثات فى اللغة العامية الدارجة بين كل الطبقات.
٣. تحديد فى أى الفئات العمرية تنتشر هذه المستحدثات داخل المجتمع ؟
٤. "لغة المهنة" هل هى أمر منتشر بين مختلف المهن داخل المجتمع ؟ وهل تنتشر بعض مرادفاتها فى استخدام العامة ؟
٥. مدى تأثير استخدام القادة والمسئولين للمصطلحات المستحدثة فى حديثهم لعامة الشعب.
٦. مدى استخدام الفئات التى تنتمى إلى ثقافات ولهجات وأقاليم متباينة لتلك المستحدثات فى العامية.
٧. إلى أى مدى تؤثر وسائل الإعلام المختلفة فى انتشار المستحدثات وترسيخها فى أذهان وعقول الناس ؟
٨. هل مازال فى استطاعتنا تحديد مستوى وطبقة الفرد من لغته فى ظل هذا التدهور اللغوى ؟

منهج الدراسة:

ذكرت الباحثة أن المنهج الصحيح والمتفق عليه فى دراسة اللغة هو دراستها من خلال سياقها الثقافى والاجتماعى، فقد أجمع علماء اللغة على هذا الجانب كما اعتبروا العالم الكبير "مالينوفسكى" هو رائد هذا المنهج، حيث كان أول من أشار إليه فى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

دراسته الشهيرة لمجتمع "التروبرياند"، واللغة العامية هى اللغة الخاصة بالحياة والمعاملات اليومية بين الناس فى المجتمع، ولذلك فإن على دارس هذه اللغة أن ينزل إلى المجتمع ويقابل ويختلط بأعضاءه حتى يمكنه دراسة اللغة السائدة فيه والكشف عن العلاقة الوثيقة بينها وبين محتوى الثقافة، وكيف أن هذه اللغة (العامية) تعكس اهتمامات المجتمع والجوانب الحيوية التى ترتكز وتدور حولها معظم أوجه النشاط الإنسانى، كما أن الدارس الأنثروبولوجى للغة لابد وأن يفهم دور اللغة فى المجتمع الذى يدرسه ويكشف عن الجوانب المختلفة التى تؤثر فى لغة الناس، وتشمل هذه الجوانب العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فاللغة العامية فى أى مجتمع إنسانى لابد وأن تعكس الصورة العامة لهذه الجوانب المختلفة والتى تشكل بناء المجتمع وتركيبه.

إذن لقد كان الربط بين اللغة والمحتوى الثقافى هو إحدى النقاط المهمة التى ارتكزت عليها دراسة اللغة من المنظور الأنثروبولوجى، ومن ثم فهى ضرورية أيضاً فى دراستنا للعامية، كما أننا حين ندرس العامية الدارجة لابد وأن نضع فى اعتبارنا (السياق الاجتماعى والثقافى) والذى لا يمكننا فهم اللغة ومفرداتها إلا من خلالهما، ويجب عند دراسة تغير مفردات وألفاظ تلك اللغة أن نضع أمام أعيننا العوامل المؤثرة فى ذلك.

وقد اعتمدت الباحثة على المنهج السوسيوأنثروبولوجى والذى يتضمن بعض الأساليب والإجراءات المنهجية المتبعة فى كل من الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع، أى أنه عملية مزاوجة بين أساليب البحث الحقلى فى كل منهما، وقد اتبعت الباحثة عدة طرق وإجراءات منهجية فى أثناء الدراسة الميدانية، أهمها:

- الملاحظة بالمشاركة.
- الاستمارة (الاستبيان).
- المقابلة.
- دراسة الحالة.
- تحليل المضمون.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد آثرت الباحثة استخدام هذا المنهج وذلك حتى يمكن الاستفادة من أكبر عدد من عينة البحث، وقد تسنى لها ذلك من خلال تطبيق (الاستمارة)، كما كانت هناك دراسة متعمقة لمشكلة البحث ركزت فيها الباحثة على عدد قليل من عينة الدراسة (عشر حالات) حيث اتبعت معهم أسلوب دراسة الحالة.

أما منطقة البحث الميدانى، فقد اقتصرت على مدينة الإسكندرية فقط مع تحديد منطقة البحث الدقيقة فى هذه المدينة، وقد شملت منطقتين من أكبر مناطق الإسكندرية، مختلفتين فى السمات والخصائص والتركيب حتى يتسنى للباحثة بعد الانتهاء من الدراسة الميدانية القيام بعملية المقارنة أثناء مرحلة التحليل، كما اختارت الباحثة عينة خاصة ينتمى أفرادها إلى الأقاليم المختلفة حتى يمكن من خلالها دراسة الوقوف على مدى التغير اللغوى الذى حدث فى تلك العينة ومدى تكيفها مع اللهجات الجديدة التى توجد بينها وهل مازالت تلك العينة تحتفظ بلهجتها الأصلية أم اندمجت وتكيفت تماما مع اللغة الجديدة.

نتائج الدراسة:

جاءت نتائج الدراسة الميدانية مطابقة لفروضها وكانت النتائج كما يلى:

١. شيوع المستحدثات فى اللغة العامية الدارجة بين كل الطبقات فى المجتمع.

٢. انتشار المستحدثات فى العامية بين الشباب أكثر من فئات العمر الأخرى.

٣. "لغة المهنة" ظاهرة تسود بعض المهن ولا توجد فى بعضها الآخر، وهناك الكثير من مصطلحات تلك المهن أصبح جزءا من اللغة الدارجة.

٤. استخدام القادة والمسئولين لبعض المصطلحات المستحدثة فى جلساتهم وأحاديثهم لأفراد الشعب يشجعهم على استخدامها بعد ذلك دون حرج أو شعور بالخطأ للتفلظ بها.

٥. لغة الأفراد هى المعيار الأساسى فى تحديد الطبقة التى ينتمى إليها، ومازال كل فرد من أفراد المجتمع قادرا على تحديد طبقة من يتحدث أمامه من لغته على الرغم من التدهور الشائع فى العامية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٦. استحالة تطبيق اللغة الفصحى كحل للقضاء على ظاهرة التدهور، فقد جاءت نتائج الدراسة تكشف عن أن معظم أفراد المجتمع يفضلون اللغة العامية لأنهم اعتادوا عليها، كما أنها اللغة المفضلة لديهم فى كل ما يرغبون فيه من برامج إعلامية وأيضا من خطب ومناقشات وندوات سياسية، وهذا ما يدعونا إلى العمل على النهوض بها ومعالجة ما تعانيه من انهيار.

٧. انحدار اللغة العامية أمر مؤكد وواضح، أكدت عليه كل الفئات المتعلمة، كما أكدوا على ضرورة مقاومة تلك الظاهرة الخطيرة قبل أن تهوى بنا إلى القاع.

٨. الأفراد الذين ينتمون إلى الأقاليم المختلفة لم يعودوا متمسكين بلهجة موطنهم الأصلى بل تغيرت لهجاتهم وذابت تماما فى داخل اللغة الجديدة التى توجد من حولهم فى المجتمع الذى يقيمون فيه.

٩. وسائل الإعلام – وبخاصة "التليفزيون" – من أهم عوامل انتشار المصطلحات المتدهورة، يليه أفلام الفيديو الهابطة، ثم سرعة تداولها بين الشباب يجعلها جزءا من العامية الدارجة.

١٠. الانفتاح الاقتصادى هو سبب ما نعانيه من تدهور، باعتباره قد أدخل إلى مجتمعنا فئات وطبقات طفيلية لم نألفها من ذى قبل هوت بمعايير مجتمعنا وتنظيمه إلى القاع.

وقد كشفت الدراسة الحقلية أيضا عن بعض النتائج التى لم تكن ضمن أهداف البحث الرئيسية، ولكنها لا جدال لها أهميتها، وهى كالآتى:

١. شيوع المستحدثات العامية فى لغة الذكور واختفائها من لغة الإناث إلى حد كبير.

٢. كثير من فئات المجتمع المتعلمين وكبار السن مازالوا متمسكين بالعامية المألوفة والتى اعتادوا عليها، ويرفضون ويستنكرون اللغة الجديدة الهابطة.

٣. اختفاء القيم وأساليب السلوك المهذب أدى إلى الاستخفاف باللغة العامية، فالاستخفاف بكل تلك المبادىء الأخلاقية أدى إلى انعكاسها على اللغة المتحدث بها، فانتشرت الألفاظ السفيهة والكلمات المنحطة كتعبير عن الانحطاط الأخلاقى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الدراسة الرابعة: "أثر الظواهر الأيكولوجية والثقافية فى اللهجة المغربية بفاس" دراسة فى الأنثروبولوجيا اللغوية[١].

موضوع الدراسة:

ذكرت الباحثة أن اللغة تعتبر مجال مهم للبحث ليس فقط من الناحية اللغوية بل كذلك من الناحية الاجتماعية الثقافية بالخروج من نطاق الكلمات إلى الجمل ومدلولاتها واختلافها باختلاف الثقافة مما يجعلها تستحق الدراسة. فكان هذا البحث لدراسة التأثيرات الأيكولوجية والثقافية فى لهجة المغاربة بفاس.

منهج وأدوات الدراسة:

اعتمدت الباحثة على المنهج الأنثروبولوجى التقليدى (الملاحظة بالمعايشة) ومنهج تحليل المضمون Content Analysis وهما يعدان من أنسب المناهج لفهم البناء الاجتماعى للوحدات اللغوية وتحليل العمليات الأساسية فى الحياة الاجتماعية التى تمثل وسائل الاتصال الجمعى. ومن ثم التعرف على الإطار اللغوى العام بأبعاده اللغوية والاجتماعية والثقافية.

كما استعانت الباحثة بالمنهج الوصفى التحليلى والمنهج المقارن للتوصل إلى أوجه التشابه والاختلاف بين العادات الكلامية فى مصر والمغرب.

وقد اعتمدت الباحثة على أنماط طبيعية من الأحاديث اليومية التى تدور بين اثنين أو أكثر فى مختلف المناسبات. بالإضافة إلى الاعتماد على نمطين من أنماط الحوار، تمثل النمط الأول فى الشجار بين زوج وزوجته وحضر الموقف الكلامى الزوجة الأولى للزوج التى حاولت بدورها التدخل للتخفيف من وطأة الشجار. وتمثل النمط الثانى فى الشجار بين صديقين أثناء جلوسهما على المقهى. ويتسم حوار الشجار

---

(١) منال عبد المنعم جاد الله، أثر الظواهر الأيكولوجية والثقافية فى اللهجة المغربية بفاس "بحث منشور فى كتاب "الاتصال الثقافى" للمؤلفة نفسها، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص ١٢ - ٩٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالتلقائية والطبيعية على الرغم من حدوثه فى وجود آخرين إلا أن الموقف الكلامى لا يؤثر على الحوار الانفعالى للمتشاجرين.

وقد ذكرت الباحثة أنها اعتمدت على نظرية أنثروبولوجية لغوية مهمة وهى نظرية سياق الحال وهى نظرية تحليلية فى المقام الأول إذ تعتمد على تحليل ملابسات الموقف الذى تستخدم فيه اللغة وصولا إلى تحديد سماتها وسمات المشتركين فيها ورموزها ودلالاتها.

وقد تبين للباحثة بالاعتماد على سياق الحال وتحليل المضمون لنمطى الحوار، الدور الاجتماعى الذى يقوم به المتكلم وسائر المشتركين فى الموقف الكلامى. وبتحليل الكلمات المنطوقة والوقوف على معانيها فى السياق أمكن الوصول إلى الأفكار التى وراء الكلام وقد ساعد ذلك على معرفة ثقافة المجتمع من معارف وعادات وتقاليد ... إلخ.

ولما كان المجتمع المغربى يتحدث لغة دارجة تختلف عن اللغة العربية كان لزاماً على الباحثة أن تتعلم اللهجة المغربية وقد استعانت بالتسجيل الصوتى والمرئى لبعض من أفراد مجتمع فاس كعينة ممثلة.

نتائج الدراسة:

١. أظهرت الدراسة الميدانية أن أفراد المجتمع يعبرون عن الحديث الذى يدور بينهم بـ "الهدرة" وحين يطلب من أحدهم الكلام يقولوا فى ذلك "أهدر" أو "أدوى" أما كلمة أتكلم أو أقول فهى تستخدم عندما يأخذ الحديث شكله الرسمى ويتحول إلى ما هو أقرب إلى التحقيق أو محاولة الوصول للحقيقة قسراً وبذلك تنعكس قوة الكلمة كمدلول فى أحاديثهم اليومية.

٢. من العادات السائدة فى المجتمع المغربى أن تقترن أحاديثهم الاجتماعية المختلفة بأنماط من الأدعية التى تأخذ الطابع الدينى ويظهر ذلك واضحا خلال معاملاتهم اليومية بين كافة المستويات، ومن هذه الأدعية الله يعطيك السر، الله يرضى عليك، الله يعطيك الخير، الله يفتح عليك، الله يعطيك الصحة، الله يهديك يا بنيتى. وللتعبير عن الغضب توجد بعض الأدعية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الصريحة المتداولة على ألسنة بعض أفراد مجتمع فـاس منهـا: الله يعطيـك المرض القبيح والمقصود هنا المرض الخبيث، الله يعطيك الويل، الله يعطيـك الموت، الله يعطيك السم، الله يعطيك الجهل.

٣. ومن عادات المغاربة الكلامية أن يلجأوا إلى تلطيف العبارة بالتوريـة، وقـد يكون ذلك تفاديا من قول ترفضه الأسماع أو يجرح الإحساس أو من ناحيـة أخرى قد يكون تعبيراً عن حقيقة كامنة يراهـا أفـراد المجتمـع المغربـى ويعتقدون فى وجودها وهى على سبيل المثال. مثل التعبير عن الأعمى بأنـه "بصير" ويرجع ذلك التعبير فى حقيقته إلى النظر لأبعد من الظاهر فللإنسـان بصر وبصيرة والبصيرة تتم بالقلب والبصر بالعين ولذلك فقد يكون الأعمـى بصيرا بالقلب وهذا هو الغالب فى نظر المغاربة لفاقد البصر. وكذلك اللـون الأبيض حين يطلق على الكحل أو أسود اللون إذ يرى المغاربة أن الإنسـان الأسمر الكحل طيب القلب ومن ثم يوصف بالبيض وصفا لقلبه وليس لمظهره الخارجى.

٤. وجود ازدواج لغوى لدى الرجل البربرى متمثلا فى اللغة البربرية والعربيـة بينما المرأة البربرية لا تستطيع أن تتكلم عدا اللهجة البربرية ويرجع ذلك إلى قلة تعاملها فى المجتمع الكبير خارج نطاق الأسرة ومجتمعها البربرى. بينما الرجل يتعامل بالتجارة أو الحرف المختلفة مع البربر والعرب معا، مما جعله أكثر معرفة باللغة العربية من المرأة البربرية.

٥. أن الشعب المغربى لا يسوده الازدواج اللغوى فحسب بل هو مزيج من عديد من اللغات (فرنسية – بربرية – عربية – إسبانية – ... وغيرها).

- فمثلاً تتأثر اللغة المغربية باللغة الفرنسية وذلك مثل اسـتخدام المغاربـة لتأنيث المذكر وتذكير المؤنث.
- تتأثر اللغة المغربية باللغة البربرية مثل استخدام المغاربة لإضافة بعـض الحروف الزائدة للكلمة مثل الكاف قبل المضـارع: كنكتـب، كنخـرج، كنمشى، كنقول، كنأكل .. الخ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

- تتأثر اللغة المغربية باللغة اليمنية مثل ظاهرة كثرة وجود الشين في مفردات المغاربة مثل شنو؟ للاستفهام عن من أو ماذا، وفوقش؟ للاستفهام عن متى، وشكون؟ للاستفهام عن من، وعلاش؟ للاستفهام لماذا.

٦. كثرة استخدام الكلمات العربية الفصحى بين مفردات اللهجة المغربية في الأسماء والأفعال وكذلك الصفات، فمن الأسماء على سبيل المثال "زربية" أى سجادة و"قرعة" أى زجاجة و"إبريق" أى براد ومن بين الأفعال "انهض"، "اجلس"، "سير" ومن بين الصفات "الزين"، "الاتساع"، "الضيق".

٧. أظهرت الدراسة أثر البيئة على اللغة وتشابه المجتمعات البدوية في خصائصها اللغوية كما هو الحال مع بدو المغرب وبدو مصر. على الرغم من اختلاف المجتمعين فى اللغة فى عمومها.

رابعاً: تقييم تطبيقات نظرية السياق:

من أجل التسليم بقيام الباحثين الأنثروبولوجيين بتطبيق نظرية السياق لا يكفى ادعائهم بأنهم سوف يقومون باستخدام نظرية السياق شفاهة، دون أن تحكم الملامح الأعمق للنظرية هذا التطبيق، ويمكن اكتشاف مدى نجاح الباحث فى تطبيق هذه النظرية فى ضوء مقومين أساسيين: **أولهما:** هو الموقف الابستمولوجى أو النموذج السيكولوجى الذى ميز هذه النظرية عند مالينوفسكى، **والثانى:** هو استخدام هذه النظرية بوصفها تقنية ميدانية لجمع المادة الإثنوجرافية وتحليلها.

من هذا المنظور يجد الباحث أن الوعى بهذين المقومين للبحث الأنثروبولوجى عند مالينوفسكى لم يظهر من بين جميع الدراسات العربية التى ادعت استخدام نظرية السياق سوى فى دراسات محمود حمدى عبد الغنى سواء فى دراسته النظرية بعنوان "البناء اللغوى من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية"، أو فى دراسته الميدانية بعنوان "العوامل الاجتماعية والثقافية فى لغات بعض الطوائف المهنية فى مصر" دراسة أنثروبولوجية فى مدينة الإسكندرية، وإن كان هناك دراسة أخرى بعنوان "مالينوفسكى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومنهج الإثنوجرافيا البرجماتية"[١] عرض الكاتب فيها - بكثير من التفصيل - الخلفية الإبستمولوجية لمالينوفسكى هذا بالإضافة إلى المقارنة الدقيقة التى قام بها لما قدمه دوسوسير لعلم اللغة The science of langue وما قدمه مالينوفسكى لعلم الكلام The science of parole وقد خرج من تلك المقارنة بما يلى:

أولاً: فى حين أن الأفكار التى قدمها دوسوسير لعلم اللغة كانت قاعدة انطلاق منهجية ليس فقط لعلم اللغة وإنما لكل العلوم الإنسانية التى تهتم بالقيمة، فقد كانت الأفكار التى قدمها مالينوفسكى لعلم اللغة بمثابة النتائج النهائية التى خرج بها من دراسته الميدانية للغة فى إحدى المجتمعات التقليدية.

ثانياً: فى حين ميز دوسوسير بين نموذجى الدراسة التعاقبية والتزامنية. وأعطى الأسبقية للدراسة التزامنية للغة، كان من صواب القول عند مالينوفسكى عدم التمييز بين هذين النموذجين والاهتمام بدراسة التعاقب داخل التزامن فى ضوء نموذج الحاضر الإثنوجرافى الحى.

ثالثاً: لقد ميز دوسوسير بين "اللغة" و"الكلام" وحصر مهمة الباحث اللغوى فى استخلاص "اللغة" من المتن الكلى للكلام الفعلى، وقد عد "اللغة" نسقاً من العلامات المجردة بينما لم يحفل مالينوفسكى بهذا التمييز وحصر مهمة الباحث الإثنوجرافى فى فهم كلام المتحدثين، وقدم تفسيراً سيكولوجياً برجماتياً له. وقد عده نسقاً من العلاقات الوظيفية الواقعية.

رابعاً: لم يكن مستوى الجملة أو القواعد هو نقطة الانطلاق الرئيسية فى التحليل لدى كل منهما، فقد بدأ كل منهما فى تحليله من مستوى علم المفردات، ولكن فى حين نظر دوسوسير للعلامة بوصفها تصوراً عقلانياً مجرداً تنحصر وظيفتها فى القيام بالتمييز بين العلامات التصورية الأخرى داخل النسق المغلق، فقد شكلت الكلمة عند مالينوفسكى واقعاً سيكولوجياً واقعياً، وانحصرت وظيفتها الوحيدة فى إقامة أو تجسيد العلاقة البرجماتية المباشرة بين الكلمة ومعناها.

---

(١) محمود حمدى عبد الغنى، مالينوفسكى ومنهج الإثنوجرافيا البرجماتية "دراسة ضمن أعمال الندوة السنوية الرابعة". قسم الاجتماع - كلية الآداب - جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

خاتمة البحث

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سبق أن ذكر الباحث فى مقدمة الرسالة أن الهدف منها هو تناول نظرية السياق التى قدمها مالينوفسكى لمنهج البحث الميدانى فى محاولة للوقوف على أهم ملامح هذه النظرية والإسهامات التى يمكن أن تقدمها فى دراسة الواقع الاجتماعى لأى مجتمع من المجتمعات والكتابة الإثنوجرافية بشكل عام، وقد اهتمت الدراسة الحالية بمدى التزام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية بتعاليم هذه النظرية فيما يتعلق بتقنيات إجراء البحث الميدانى سواء فى الدراسات البريطانية أو العربية مع التركيز على الدراسات العربية، فقد كانت الأفكار التى قدمها مالينوفسكى لمنهج البحث الميدانى الأنثروبولوجى، والضوابط الإثنوجرافية التى وضعها لتمثيل الحقائق اللغوية نتائج خلاقة فى علم اللغة الوصفى البريطانى وفى الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية على حد سواء.

وقد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

١ ـ نظرية السياق نظرية منهجية لإجراء البحوث الأنثروبولوجية:

لقد أبرزت الدراسة أن نظرية السياق تعد نظرية منهجية يستخدمها الباحث الأنثروبولوجى لمساعدته فى إجراء الدراسات العلمية، فوفقاً لمالينوفسكى، ومن أجل فهم النظم والأعراف والحقائق الثقافية فى أى مجتمع يجب على الباحث الأنثروبولوجى أن يفهمها ويحللها من خلال سياق البيئة الثقافية الفريدة التى وجدت فيها، وذلك بالالتزام بخمسة تقنيات ضرورية وهى:

التقنية الأولى: (اعتبار اللغة نموذجاً من نماذج الفعل الإنسانى):

فعلى الرغم من أهمية الدراسة التفصيلية لقضية العلاقة بين الفكرة والكلمة، وبين الإفادة اللفظية والموقف الذهنى، إلا أنه ليست الوظيفة الرئيسية للغة هى التعبير عن الفكر، ولا مطابقة للعمليات العقلية، وإنما هى فى الحقيقة أداء دور عملى فعال فى السلوك الإنسانى. فللغة سمة برجماتية Pragmatic جوهرية بمعنى أنها نموذج من نماذج السلوك كما أنها أحد العناصر الأساسية فى إنجاز الأفعال الإنسانية التكاملية. أى أن الكلمة لها قوة فى ذاتها، وهى وسيلة لإنجاز الأفعال وجذبها، ولذلك تستخدم الكلمات كبديل صريح للأفعال، ولا تستخدم لتعريفها.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولقد ظهر هذا الاعتبار من ملاحظة مالينوفسكى لمظاهر اللغة وثيقة الصلة بسياقات الموقف (أثناء التجارة، صيد السمك، زراعة الحدائق، الحرف والمواقف المماثلة)، فقد اختار ملاحظة الدلالات المباشرة لهذه النشاطات والإسنادات إلى البيئة، وكلمات الصيد، والكلمات الموازية لأداء الأفعال وكل التعبيرات العاطفية المرتبطة بالسلوك. وهكذا أكد أن جوهر الكلمة المنطوقة يعتمد برمته على السياق الذى تلفظ فيه، ويتوقف معنى الكلمات على ما تنجزه من الفعل العينى المجسد.

التقنية الثانية: (ضرورة تعلم اللغة المحلية):

لقد أكدت نظرية السياق على ضرورة تعلم الباحثين الأنثروبولوجيين للغة المجتمع المدروس، وتقليل الاعتماد على الإخباريين المحترفين أو المترجمين فى فهم اللغة، ذلك أن استخدام الباحث للغة الوطنية يساعد فى أن يفهم ما يقوله الوطنيون بين بعضهم بعضا خلال التدفق الطبيعى للمحادثات أو النزاعات بينهم، كما يساعد أيضاً فى فهم سلوكهم التكاملى الذى يتألف من الأفعال اليدوية واللفظية فى آن واحد، وبالتالى يجب معرفة المصطلحات الوطنية وفهمها داخل سياقات الحال الخاصة بها. وذلك لأن فهم معنى اللغة لا يمكن تحديده إلا بمشاهدة المنطوق فى السياق الذى يستخدم فيه، حيث أن المنطوقات لا تُنطق أو تُفهم كأحداث مستقلة بذاتها وإنما تُنطق وتُفهم من السياق الاجتماعى والثقافى والفعلى للمعنى بين المتخاطبين.

وقد استخدم مالينوفسكى هذه التقنية فى دراساته الميدانية لفهم ثقافة المجتمع المدروس، فمثلاً لقد وصل إلى جزر التروبرياند فى مايو ١٩١٥م وكان لا يعرف كلمة واحدة من اللغة المحلية لسكان هذه الجزر، ومع حلول سبتمبر من العام نفسه كان بمقدوره استخدام اللغة فى المحادثة بسهولة. وقد اعترف مالينوفسكى بأنه استغرق وقتاً أطول من ذلك حتى تمكن من تتبع المحادثات الجارية بين التروبرياندين.

ولذلك يلح مالينوفسكى على الإثنوجرافيين فى تعلم اللغة الوطنية وفهمها من أجل الدراسة التفصيلية الدقيقة للمناطق الإقليمية التى يدرسونها، هذا وإن لم يتمتع الباحث بالموهبة الطبيعية ذاتها التى اشتهر بها مالينوفسكى فى كسب اللغات الوطنية، فاللغة هى الأداة المهمة للإثنوجرافى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التقنية الثالثة: (استخدام الباحث لأسلوب الملاحظة بالمشاركة):

لقد أكد مالينوفسكى من خلال نظريته السياقية على أن الباحث الأنثروبولـوجى لا يمكن له الوصول إلى فهم عميق ودراسة مركزة وشاملة لثقافة جماعة ما، ما لم يقـم الباحث بالاتصال المباشر والمعاشرة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة. كمـا لا يكفى أن يذهب الباحث إلى منطقة الدراسة كزائر ثم يعاود زياراتـه إلـى القبيلـة أو الأفراد الذين يصف حياتهم بل يجب على الباحث أن يندمج مع الجماعة التى يدرسـها اندماجاً كلياً، ويعيش حياتهم بقدر الإمكان بحيث يستطيع ملاحظـة مظـاهر نشـاطهم اليومى، ويتابع حياة الجماعة من داخل الجماعة وليس مـن خارجهـا. فيعـيش مـع الجماعة التى يدرسها بطريقتها الخاصة، فلا يجد حرجاً فى أن يستطيب ألوان الطعـام الشائعة عندها أو يرتدى أزياءها القومية أو يتذوق ثقافتها وطقوسها وأساليب التواصل بينها، بمعنى أن يعيش الباحث الأنثروبولوجى كما لو كان فرداً من أفـراد الجماعـة فيلتزم بآدابها وثقافتها ويتحرك بوعى داخل الإطار الاجتماعى والأخلاقى للجماعة.

هذا الأسلوب يسميه مالينوفسكى "الملاحظة بالمشاركة" فهى طريقة لجمع المـادة عن طريق الاشتراك فى الأنشطة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة، بمعنـى أن الباحث لا يقف موقف الشاهد أو الملاحظ عن بعد، وإنما يلجأ إلى المشـاركة الفعليـة فيما يقوم به الأفراد فى المناسبات المتعددة والمجالات المختلفة التـى تشـكل أساسـاً جوهرياً فى فهم الثقافة، فالباحث فى رأى مالينوفسكى لا يمكنه الوصول إلـى حقيقـة الثقافة دون أن يكون له فرصة الجمع بين الملاحظة والمشاركة فى الوقت نفسه، وقـد اقترح مالينوفسكى أنه لابد من أن يقضى الباحث عاماً كاملاً على الأقل فـى مجتمـع الدراسة حتى يتسنى له ملاحظة أوجه نشاط الجماعة وتحليلها فى الفصـول المختلفـة وعلى مدار السنة. وقد قام مالينوفسكى بتطبيق هذا الأسلوب إذ استطاع أن يقضى فى دراسته لسكان جزر التروبرياند فى ميلانيزيا أربع سنوات بين عـام ١٩١٤م وعـام ١٩١٨م.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التقنية الرابعة: (ضرورة الفهم الوظيفى السيكوبيولوجى للثقافة):

فبدلاً من التحليلات السوسيولوجية (مثل تحليل دور كايم ورادكليف براون) التى تقدم تفسيراً لهيئة الحياة الاجتماعية الخارجية للظواهر والنظم، فإن نظرية السياق تضع دوافع الفرد الوجدانية وأفكاره وعواطفه الخاصة موضع الفهم والتحليل من الداخل، إذ أصبحت الدراسة الميدانية الجيدة للنظم والأعراف والحقائق الثقافية لا تتم فى ضوء التمثيل الموضوعى لها، وإنما تتم فى ضوء التصوير السياقى للدور أو الوظيفة التى تقوم بها فى إشباع الحاجات السيكولوجية والبيولوجية للأفراد المكونين للمجتمع بوصفهم كذلك.

التقنية الخامسة: (الفهم الوظيفى التزامنى للثقافة):

لقد أكدت نظرية السياق على أن ثقافة أى مجتمع ينبغى أن تُدرس بشكل تزامنى مع وجود الباحث ووقت ملاحظة الباحث لذلك المجتمع وبشكل لا تاريخى، فالعنصر الثقافى لا يمكن فهمه عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره وإنما من خلال دراسة سياقه الثقافى التزامنى فى ضوء وظيفته الفعالة، وفى إطار علاقته مع العناصر الأخرى، ودراسة ثقافة الشعوب كل على حدى، فى إطار وضعها الحالى لا كما كانت عليه.

وتبعاً لنظرية السياق فإنه لا يستلزم دراسة التغير الاجتماعى أو الثقافى من خلال تتبع الأحداث والظواهر الثقافية أو الاجتماعية عبر الزمن، بل إن كل ما يحتاج إليه الأمر فى ذلك هو أن يختار الباحث الأنثروبولوجى لحظة معينة يسميها مالينوفسكى "نقطة الصفر Zero Point" وأن يفترض أن التغير فى الثقافة وفى المجتمع حدث عندها، ثم يقارن بين الأوضاع السائدة قبل هذه النقطة وبعدها. وفى ذلك كله يأخذ الحياة الاجتماعية فى كل حالة على حدى على أنها تؤلف وحدة متكاملة لها كيان متماسك متمايز.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢ ـ ضرورة الاستعانة بنظرية السياق فى إجراء البحوث الأنثروبولوجية:

تؤكد الدراسة ضرورة الاستعانة بنظرية السياق كنظرية منهجية فى إجراء البحوث الأنثروبولوجية الميدانية، فقد كشفت الدراسة عن أنه لا نكاد نرى فى دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية أو العربية إلا إسهامات محدودة فى الوعى بتعاليم هذه النظرية وفيما يتعلق بتعلم اللغة المحلية والنموذج السيكولوجى للنظرية فقط دون جوانب النظرية الأخرى، ولذلك لابد من الاستفادة من هذه النظرية واستخدامها فى جمع المادة الميدانية وأيضاً فى تحليل هذه المادة وكذلك فى كتابة النص الإثنوجرافى أو التقرير النهائى للبحث الأنثروبولوجى.

٣ ـ اختلاف نظرية السياق عن فكرة المقام عند البلاغيين العرب:

لقد أبرزت الدراسة اختلاف نظرية السياق عن فكرة المقام عند البلاغيين العرب، وذلك لأن التصور اللغوى الذى قدمه البلاغيون العرب لفكرة "المقام" كشرط أساسى من شروط تحليل الدلالة اللغوية، يختلف تمام الاختلاف عن التصور الإثنوجرافى الذى قدمه مالينوفسكى لنظرية السياق بوصفها أحد الشروط المنهجية الضرورية لفهم "الثقافة" الأجنبية والكتابة حولها فى اللغة الإنجليزية. ومن هذا المنظور لا يمكن إرجاع نظرية السياق عند مالينوفسكى إلى مفهوم "المقام" عند البلاغيين العرب. فقد ارتبطت نظرية السياق عند مالينوفسكى بالظروف البدائية "الشفاهية" التى أجرى فيها بحثه الميدانى بين سكان جزر التروبرياند بغينيا الجديدة، وبشكل أخص حين عكف على ترجمة معانى المصطلحات المحلية إلى اللغة الإنجليزية. فهو لم يكن فى الأصل باحثاً لغوياً يهتم بدراسة المعنى اللغوى فى لسان الأم مثلما كان الأمر لدى اللغويين العرب، وإنما كان باحثاً إثنوجرافياً دعته الحاجة المنهجية لدراسة الثقافة الشفاهية البدائية والكتابة حولها إلى الانتقال إلى اللغة، وقد صاغ أفكاره فى هذا الميدان ليس من منظور علم الدلالة وإنما من منظور منهج البحث الميدانى الذى فرض طبيعة الموضوع فيه مواجهة أعضاء أحد المجتمعات الذى يتحدث أعضاؤه لغة مغايرة عن اللغة التى يتحدثها الدارس الأنثروبولوجى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع العربية.

ثانياً: المصادر والمراجع الأجنبية.

ثالثاً: مصادر الشبكة المعلوماتية العالمية.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أولاً ـ المصادر والمراجع العربية:

١. أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعى "مدخل لدراسة المجتمع"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الأسكندرية، ١٩٨٢، ج١ المفهومات، ط٨.

٢. إميل دوركايم: قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم والسيد محمد بدوى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٤.

٣. إحسان محمد الحسن: النظريات الاجتماعية المتقدمة "دراسة تحليلية فى النظريات الاجتماعية المعاصرة"، دار وائل للنشر، عمان، ٢٠٠٥، ط١.

٤. ايكه هولتكرانس: قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهرى وحسن الشامى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ١٩٧٢.

٥. برونيسلاف مالينوفسكى: السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية ومقالات أخرى، ترجمة فيليب عطية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.

٦. تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣، ط١.

٧. جوناثان كللر: فردينان دوسوسير "تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات"، ترجمة محمود حمدى عبد الغنى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠.

٨. حسين فهيم: قصة الأنثروبولوجيا، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٩٨، ١٩٨٦.

٩. حسين عبد الحميد أحمد رشوان: الأنثروبولوجيا فى المجال النظرى، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٨٨.

١٠. شاكر مصطفى سليم: قاموس الأنثروبولوجيا، جامعة الكويت، ١٩٨١، ط١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

١١.فتحية محمد إبراهيم ومصطفى حمدى الشنوانى: مدخل إلى مناهج البحث فى علم الإنسان " الأنثروبولوجيا"، دار المريخ، المملكة العربية السعودية، ١٩٨٨.

١٢.فرنسوا لابلانتين: مفاتيح الأنثروبولوجيا، تعريب حفناوى عمايرية، مركز النشر الجامعى، تونس، ٢٠٠٠.

١٣.قبارى محمد إسماعيل: علم الاجتماع والفلسفة "الجزء الثانى نظرية المعرفة"، دار الطلبة العرب، بيروت، ١٩٦٨، ط٢.

١٤.ـــــــــــــــــ: علم الاجتماع الفرنسى، دار الكتب الجامعية، الأسكندرية، ١٩٧١.

١٥.ـــــــــــــــــ: رادكليف براون، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٧.

١٦.كمال محمد بشر: قضايا لغوية، دار الطباعة القومية (النجاح سابقاً)، القاهرة، ١٩٦٢.

١٧.لوسى ميز: مقدمة فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة شاكر مصطفى سليم، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ١٩٨٣.

١٨.مايكل كاريذرس: لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة، ترجمة شوقى جلال، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٩، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٨، ص٢٢٢.

١٩.مجموعة من الكُتاب: نظرية الثقافة، ترجمة على سيد الصاوى، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٢٣، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٧.

٢٠.محمود حمدى عبد الغنى، البناء اللغوى من منظور الأنثروبولوجيا الثقافية، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف عبد المجيد عابدين وفاروق مصطفى اسماعيل، قسم الأنثروبولوجيا – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ١٩٨٣.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢١. ـــــــــــــــــ: العوامل الاجتماعية والثقافية فى لغات بعض الطوائف المهنية فى مصر "دراسة أنثروبولوجية فى مدينة الإسكندرية"، رسالة دكتوراه غير منشورة، إشراف فاروق مصطفى اسماعيل، قسم الأنثروبولوجيا – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، ١٩٩١.

٢٢. ـــــــــــــــــ: مالينوفسكى ومنهج الإثنوجرافيا البرجماتية "دراسة ضمن أعمال الندوة السنوية الرابعة". قسم الاجتماع – كلية الآداب – جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

٢٣. ـــــــــــــــــ: تصنيف القضايا فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار نوار، بيروت، ١٩٩٩.

٢٤. ـــــــــــــــــ: الأنثروبولوجيا الاجتماعية "نماذج التأويل"، دار نوار، بيروت، ٢٠٠٢.

٢٥. ـــــــــــــــــ: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مؤسسة حورس الدولية، الأسكندرية، ٢٠٠٤.

٢٦. ـــــــــــــــــ: قياس المفاهيم النظرية والمنهجية فى العلوم الاجتماعية، مؤسسة حورس الدولية، الأسكندرية، ٢٠٠٥.

٢٧. ـــــــــــــــــ: البناء والنظم والتغير، دار نوار، بيروت، ٢٠٠٦.

٢٨. محمود السعران: علم اللغة "مقدمة للقارئ العربى"، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.

٢٩. محمد فؤاد أحمد على الدين: مشكلة المعنى بين النحو والبلاغة، رسالة دكتوراة، إشراف كمال محمد بشر وعبد الرحمن محمد السيد، كلية دار العلوم – جامعة القاهرة، ١٩٨٦.

٣٠. منال عبد المنعم جاد الله، أثر الظواهر الأيكولوجية والثقافية فى اللهجة المغربية بفاس "بحث منشور فى كتاب "الاتصال الثقافى" للمؤلفة نفسها، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣١. مها محمد فوزى معاذ، عوامل تغير اللغة العامية فى مصر "دراسة أنثروبولوجية لغوية ميدانية"، رسالة دكتوراه، إشراف محمد عبده محجوب، جامعة الإسكندرية، كلية الآداب – قسم الأنثروبولوجيا، ١٩٨٩.

٣٢. هيلارى هنسون: الأنثروبولوجيون الاجتماعيون واللغة "عرض نقدى لتطور العلاقة فى بريطانيا"، ترجمة محمود حمدى عبد الغنى، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٩.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ثانياً ـ المصادر والمراجع الأجنبية:

1. Ardener, E.; Social Anthropology and Language, Tavistock Publications, London, 1971.
2. Ashley, A.; Sociological theory "classical statements", Allyn and Bacon LTD, London, 1995.
3. Finnegan, R.; Attitudes to the study of oral literature in British social anthropology, In man, 1969, vol. 5.
4. Firth, John. Robert.; Ethnographic Analysis of Language with Reference to Malinowsk's Views; In Man & Culture: An Evaluation of the work of B. Malinowski, ed. By R. Firth, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1970, PP. 93 – 118.
5. Firth, Raymond.; "Social anthropology"; In International Encyclopedia of the social science, 1968, vol. 1, pp. 320 – 324.
6. Fortes, M.; "C. G. Seligman"; in international encyclopedia of the social science, 1968, vol. 14, pp. 159 – 162.
7. Frazer, Sir, J.; "Preface" to B. Malinowski; Argonauts of the western pacific, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1950.
8. Giddens, A.; Trends in the philosophy of the social sciences; In Barry Dufour (ed.) new movement in the social sciences and humanities.
9. _____; Durkheim, Fontana modern masters, G. B, 1978.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

10. Hartmann, R. & F. C. Stock.; Dictionary of Language and linguistics, Applied science publishers LTD, London, 1972.

11. Hatch, E.; Theories of man & culture, Columbia University Press, U. S. A., 1973.

12. Kaberry, Ph.; Malinowski's contribution to field work method and writing of ethnography; In man & culture: An Evolution of the work of B. Malinowski, ed. By R. Firth, Routledge & Kegan Paul, London, 1970, pp. 71 – 91.

13. Kuklick, H.; "B. Malinowski"; In Encyclopedia of Social and Cultural Anthropology, Routledge, London, 1996, pp. 343 – 346.

14. Layton, R.; An Introduction to theory in anthropology, Cambridge university press, United Kingdom, 1997.

15. Leach, E.; "Social Structure", In International Encyclopedia of the Social Science, vol. 14, 1968, pp. 482 – 489.

16. ———; "W. H. R. Rivers"; In International Encyclopedia of the Social Science, vol. 14, 1968, pp. 526 – 529.

17. ———; The Epistemological Background to Malinowski's Empricism; In man & culture, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1970, pp. 119 – 137.

18. ———; Social Anthropology, Fontana Master guides, 1982.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

19. Lienhardt, G.; From Study to Field and Back, Times Literary Supplement, London, 1985.

20. Lukes, S.; Emile Durkheim "His life and work – A Historical and Critical Study", Penguin Books, 1973.

21. Malefijt, A. de.; Images of Man: A History of Anthropological Thought, N. Y, 1974.

22. Metraux, R.; B. K. Malinowski'; In International Encyclopedia of The Social Sciences, 1968, vol. 9, pp. 541 – 547.

23. Malinowski, B.; The Problem of Meaning In Primitive Languages, Supplement to The Meaning of Meaning, I. A. Richards & C. K. Ogden, London, 1983, Fifth Edition.

24. ————————; A Scientific theory of culture and other essays, The University of North Corolina Press, 1944.

25. ————————; The Dynamic of Cultural change, New Haven, Yale University, 1945.

26. ————————; Argonauts of the western pacific, Routledge & Kegan Paul LTD, London, 1950 (1922), The Introduction.

27. Palmer, F. R.; Semantics: A New outline, Cambridge University Press, England, 1977.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

28. Phelan, W. D.; "William James"; In International Encyclopedia of Social Science, 1968, vol. 8, pp. 227 – 233.

29. Quiggin, A. H.; "A. C. Haddon"; In International Encyclopedia of Social Sciences, 1968, vol. 6, pp. 303 – 304.

30. Richards, A. I.; "The concept of culture In Malinowski's work"; In man & culture: An Evaluation of The work of B. Malinowski, ed. By R. Firth, Routledge & Kegan Paul, London, 1970, pp. 15 – 30.

31. Robins, R. H.; General Linguistics: An Introductory Survey, Longmans Green & Co LTD, London, 1968.

32. ScHuman, H.; "Survey Research": In Encyclopedia of Sociology, by Edgar F. Borgatta & Marie L. Borgatta, Macmillan Publishing Company, New York, vol. 4, 1992, pp. 2119 - 2127.

33. Stocking, G. W.; "The Ethnographer's Magic: Field work in British Anthropology from Tylor to Malinowski"; In History of Anthropology, University of Wisconsin Press, vol. 1, 1983.

34. Term, R. C. Adam.; "Introspection", In Encyclopedia of psychology, Edited by Corsini & Raymond. J, Johnwiley & Sons, New York, Second Edition, vol. 2, 1994, pp. 287 - 288.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

35. Wilson, D.; "Pragmatism": In the social science Encylopedia; Routledge, London, 1996, pp. 660 - 661.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

ثالثاً ـ مصادر الشبكة المعلوماتية العالمية:

1. http://mnsu.edu/emuseum/information/biography/klmno/malinowski_bronislaw.html.
2. http://socrates.berkeley.edu/~anth3/bronislaw_malinowski.htm
3. http://www.absoluteastronomy.com/encyclopedia/alan/Annee_sociologique.htm
4. http://www.arkamani.org/vol_2/anthropology_file_2/theory_in_anthropology_6.htm
5. http://www.arkamani.org/vol_3/anthropology_file3/theory_in_anthropology_7.htm
6. http://www.NNdb.com
7. http://www.wikipedia.org
8. Malinowski Project, seminar project for Anthropology, 500b, spring term, 1999, at yale university.

   URL:http://classes.yale.edu/03 - 04/anth500b/projects/project - sites/99 - song/default.htm

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

جامعة حلوان
كليـــة الآداب
قســـم الاجتمـاع
شعبة الأنثروبولوجيا والفولكلور

ملخص للرسالة المقدمة من الطالب

عبد المنعم المغازى عبد المنعم

المعيد بقسم الاجتماع لنيل درجة الماجستير فى الآداب

تحت عنوان

إسهامات نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية

موضوع الدراسة:

من المعروف أن أهم خاصية من خصائص البحث الأنثروبولوجى هـى دراسـة الثقافة فى الميدان فالدراسة الميدانية هى عماد الدراسات الأنثروبولوجية، ومما لا شك فيه أيضاً أهمية المخططات النظرية وذلك لأنها هى التى تحدد للباحثين مجال الرؤية؛ فهى التى تحدد ما له صلة وثيقة بالبحث الميدانى وما ليس كذلك كما تحـتم مـا يـتم رؤيته فى الميدان وتساعد فى تحليل البيانات، ويمكن تشبيه أهمية النظريـة بالنسـبة للمعرفة الأنثروبولوجية بأهمية الحواس بالنسبة للإنسان. ومن هذا المنظـور تظهـر أهمية نظرية سياق الحال Context of situation موضوع الدراسة التى ابتكرها عالم الأنثروبولوجيـا الشـهير برونيسـلاف مالينوفسـكى Bronislaw Malinowski

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٨٨٤ – ١٩٤٢م)، والتى خرج بها من دراسته الميدانية الشهيرة لسكان جزر التروبرياند Trobrianders، والتى تبلورت من الصعوبات الكثيرة التى واجهته بدءاً من مشكلة تعلم اللغة المحلية وفهم العقلية الوطنية، ونهاية بكتابة التقرير أو النص الإثنوجرافى النهائى ووصف ثقافة الآخر البدائى،

أهداف الدراسة:

إن الهدف الأساسى الذى تسعى إليه هذه الدراسة فى تناول النظرية السياقية التى قدمها مالينوفسكى لمنهج البحث الميدانى فى محاولة للوقوف على أهم ملامح هذه النظرية والإسهامات التى يمكن أن تقدمها فى دراسة الواقع الاجتماعى لأى مجتمع من المجتمعات بشكل عام.

أهمية دراسة الموضوع:

١. عدم وجود دراسات أنثروبولوجية تتناول الإسهامات اللغوية البارزة التى قدمها مالينوفسكى للأنثربولوجيا الاجتماعية.

٢. عدم اهتمام المتخصصون العرب بتطبيق أفكار مالينوفسكى فيما يتعلق بقضايا نظرية السياق فى دراساتهم الميدانية وأسلوب كتاباتهم للإثنوجرافيا.

محتويات الدراسة:

تضمنت هذه الدراسة مقدمة وخاتمة وأربعة فصول. فى مقدمة الدراسة أشار الباحث إلى موضوع الدراسة وأهمية دراسة الموضوع والمنهج المتبع فى الدراسة، والحديث عن محتويات الدراسة.

وجاء الفصل الأول بعنوان "نظرية السياق ومنهج البحث الميدانى فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية".

أمّا الفصل الثانى فهو بعنوان "الوظيفية السيكوبيولوجية عند مالينوفسكى وعلاقتها بنظرية السياق".

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والفصل الثالث جاء بعنوان "نظرية الثقافة عند مالينوفسكى".

أمّا الفصل الرابع فقد جاء بعنوان "تطبيقات نظرية السياق فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية".

والخاتمة عرض الباحث فيها أهم النتائج التى انتهت إليها الدراسة.

نتائج الدراسة:

١. نظرية السياق نظرية منهجية لإجراء البحوث الأنثروبولوجية:

وذلك بالالتزام بخمسة تقنيات ضرورية وهى:

التقنية الأولى: (اعتبار اللغة نموذجاً من نماذج الفعل الإنسانى):

التقنية الثانية: (ضرورة تعلم اللغة المحلية):

التقنية الثالثة: (استخدام الباحث لأسلوب الملاحظة بالمشاركة):

التقنية الرابعة: (ضرورة الفهم الوظيفى السيكوبيولوجى للثقافة):

التقنية الخامسة: (الفهم الوظيفى التزامنى للثقافة):

٢. ضرورة الاستعانة بنظرية السياق فى إجراء البحوث الأنثروبولوجية:

٣. اختلاف نظرية السياق عن فكرة المقام عند البلاغيين العرب:

الكلمات المفتاحية:

- الأنثروبولوجيا الاجتماعية.
- الأنثروبولوجيا اللغوية.
- نظرية السياق.
- منهج البحث الميدانى.
- برونيسلاف مالينوفسكى.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

HELWAN University
Faculty of Art
Department of Sociology
Section of Anthropology

Summary

"The Contributions of The Theory of Context in Social Anthropology"

by

Abd Al-Moniem Al-Moghazy Abd Al-Moniem

Malinowski's contributions to the theory of social anthropology were of two sharply divergent kings. In the firs place he created a theory of ethnographic field-work. Although Malinowski's account of Trobriand culture is far from complete, his descriptions are so alive that we feel we know these people better than any other in the entire anthropological catalogue. The difference between the dry record of 'old style ethnography' and the vivid life of 'Malinowskan ethnography' is not merely an artistic device, it is a matter of theoretical insight.

This theory has become a fundamental element in the general body of doctrine propounded by British social anthropologists. We do not now seek to imitate the rather Frazerian style of tine writing

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

which Malinowski adopted but, most definitely, we do all emphasize that we are studying contemporary societies of living human beings rather than fossilized relics from the prehistoric past. Malinowski transformed ethnography from the museum study of items of custom into the sociological study of systems of action.

Key Words

- Social Anthropology.
- Linguistic Anthropology.
- Theory of Context.
- Field Work Method.
- Bronislaw Malinowski.

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

HELWAN University
Faculty of Art
Department of Sociology
Section of Anthropology

The Contributions of The Theory of Context in Social Anthropology

Thesis Submitted for the Fulfillment of the Requirements
for the Master Degree of Arts Department of Sociology

Submitted by

Abd Al-Moniem Al-Moghazy Abd Al-Moniem

Supervised by

Prof. Dr.
Nagwa Abd Al-Hameed Mohamad
Prof. of Anthropology
Faculty of Arts, Helwan University

Dr.
Mahmoud Hamdy Abd Al-Ghany
Lecturer of Anthropology
Faculty of Arts, Helwan University

2006

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com